الفصل السادس

حصار جدة

بعد أن غـادرت عَمَّـان في شهر أبريل (نيـسان) عام ١٩٢٤م فـي إجازة طويلة استعداداً للتقاعد من الخدمة الحكومـية وجدت نفسي أخيراً حراً وبإمكاني أن أباشر العمل في مشروع رغبت في إنجازه منذ فترة تعود إلى عام ١٩١٨م.

وصلت إلى وادي الدواســـر، وكنت أول أوروبي يصل إلى هـناك، ومن هناك تجولت في الأطراف الجنوبيـة الغامضة من شـبه الجزيرة العـربية وهي مناطق الربع الخالي العـذراء. كان ريتـشارد بورتون وبالتـحديد في عام ١٨٥٣م قـد انطلق من مصر للغايـة نفسها، ولكنه عندما وصل إلى المدينة وجد أن القـبائل المتناحرة التي كانت في طريقه إلى هناك ألغت فكرة الاستـمرار في تلك المغامرة. وجد في ذلك الوضع مبرراً لعدم اسـتمراره في مهمته، وعليه ذهب إلى مكة لأداء حـجة اشتهر بها. وخلال الثمانين سنة التالية شـاهد مختلف الرحالة أطراف الصحراء، ولكنهم عادوا قبل الوصول إليها غير راغبين في ركوب المخاطر.

وصل في عام ١٩١٢م إلى الريـاض جيرالد ليـتشمـان قادماً من بغـداد، وكان ينوي اكتشاف مـجاهل البراري القاسية، لكنه سار خلف ابن سـعود إلى الأحساء التي كانت في ذلك الوقت خاضعة للاحتلال العثماني. وبعد ذلك بعامين تولدت لدى الكونتيسة ميلتيـور (فيما بعد تغير اسمها ليصـبح ماليمغناتي) التي كانت في دمشق فكرة عبور الجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب. وفي كتاب نشر في عام

١٩٢٥م[١] ادعت ميليتور بأنها وصلت إلى الزلفي قبل أن تزيغ عن طريق المدينة وتعود إلى النقطة التي بدأت منها. أسهم ذلك الكتاب في إظهار قدراتها على التخيل أكثر من أن يسهم في إبراز سمعتها بصفتها مكتشفة. أما الشخصية التي كانت أكثر جدية في مقارعة مجاهل الربع الخالي فكانت شخصية الميجر ليتشمان الذي كان في ربيع عام ١٩٢٤م أول أوروبي يصل إلى مشارف واحة يبرين. رفضت الجزيرة العربية البكر كل الذين نشدوا ودها، كما أنها لن تسمح لهم بالاستمتاع بسحرها إلا بنظرات خاطفة وعن بعد. كما تركت لديهم أملاً واهناً في أنها ربما تذعن لمثابرتهم في التودد إليها في يوم من الأيام.

بدا الوقت ملائماً للكشف عن تلك القصص الغامضة، إذ الناس يتحدثون عن أعمال عنيفة غير ملائمة: تحدثوا عن استخدام السيارات وحتى عن استخدام الطائرات للتوغل في منطقة خشي الرجال وخافت الجمال السير فيها. وعلى المدى الطويل كانت هذه الأحداث بمثابة أمور واقعة لا محالة، وستصبح حقيقة عندما يحين الوقت. لكن في تلك المرحلة كان لا يزال أمام الإنسان وقت ليثبت قدرته في التغلب على عقبات الطبيعة على الرغم من الأمور العرضية. وفي صيف عام ١٩٢٤م بدت فرص النجاح جيدة. كنت حراً وكان من الممكن أن أحظى بمساعدة ابن سعود، ولم يبق سوى ترتيب السبل والوسائل الضرورية لذلك. وفي الواقع كنت مفلساً تماماً لكن أدخلت في خطتي شخصية مقتدرة مادياً.. فكانت روزيتا فوربس تبحث عن مناطق صحراوية لتكتشفها وتتغلب عليها بعد رحلتها المحفوفة بالمخاطر التي قامت بها في منطقة الكُفْرة في الصحراء الليبية: أثبتت تلك المغامرة

(١) «عبر داخل الصحاري إلى المدينة»، قمت بمراجعته لجمعية وسط آسيا في تلك السنة بشكل قاسٍ وغير لطيف. (المؤلف).

قدرتها على تحمل عناء وصعوبات السفر في الصحراء، كما أن تلك الصعاب وضعتها في موقف فرض على الصحافة أن تقدم العون لها. . خاصة وأن الصحافة في تلك الأيام كانت تشجع الأعمال الرومانسية الخيالية. وسرعان ما أعددنا ترتيباتنا، والفضل في ذلك يعود إلى سخاء اللورد بورنهام الذي كان يعمل في صحيفة الديلي تليغراف، إذ أراحنا من عبء المشاكل المالية. كانت تلك البادرة نهاية الموضوع المطروح؛ لأن الجزيرة العربية تغلبت علينا بعد إحدى عشرة ساعة فقط.

إن انهيار مؤتمر الكويت في شهر أبريل (نيسان) من ذلك العام أنذر بقدوم عاصفة هوجاء. بدا هجوم السعوديين في شهر أغسطس (آب) على مناطق عبر الأردن وشيكاً، كما أن الزوبعة هبت في أوائل سبتمبر (أيلول) على الحدود الشرقية من الحجاز. وفي خلال بضعة أيام كانت الطائف قد سقطت في أيدي الإخوان، وعلمت حكومة لندن في اليوم الثاني عشر أخبار المجزرة التي نجمت عن ذلك. كان موضوع سقوط مكة أمراً وشيك الحدوث، وكان سكان جدة يرتعدون خوفاً مما يمكن أن يحمله القدر إليهم. وفي ظل تلك الظروف تقتضي الحكمة أن نتخلى عن مشروعنا، لكن في الوقت نفسه كان من الممكن أن يكون سقوط حكم الأشراف لصالح ذلك المشروع، أو على الأقل لا يفاقم من مشاكلنا. لم يكن بإمكاننا أن نتنبأ بالهدوء الذي يمكن أن ينجم عن الضربة الأولى للعاصفة، كما أننا كنا قد قطعنا شوطاً طويلاً في خططنا ومن الصعب علينا التراجع عن مشروعنا. وسواء كنا على صواب أو على خطأ فقد قررنا الاستمرار في المشروع خاصة وأننا حظينا بما نحتاجه من السرية والكتمان. ومع تدفق أحداث الوضع السياسي في الجزيرة العربية كان من الصعب التوقع أن يصدر عن الحكومة

البريطانية أية نوايا حسنة، بل استشعر العديد من الناس المعارضة البريطانية الفعالة التي -عندما حان الوقت- تجسدت بشكل ملحوظ. وعليه قررنا أن نبدأ رحلتنا إلى وجهات مختلفة ضمن مجموعات مستقلة، أي أن تذهب روزيتا مع خبير التصوير السينمائي إلى البحرين، ومن هناك تتوجه لمقابلتي في القطيف أو في مكان آخر تفرضه علينا الظروف.

وأقول هنا: إن الفضل يعود إلى التعاون الدولي الذي أبداه السيد أرنولد ولسون الذي كان في تلك الفترة يشغل منصباً مهماً في شركة الزيت العربية البريطانية، إذ سهل لي الوصول إلى بندر عباس على ساحل الخليج على متن سفينة بخارية يقال لها رجيستان وهو اسم ملائم يعني (رمال الصحراء). وفي الخامس عشر من شهر تشرين أول غادرت لندن وبعد مضي يومين انطلقت السفينة من مرسيليا. في تلك المرحلة شعرت بأنني بدأت مغامرة كبيرة علماً بأن آخر مكان يمكن أن أفكر في الذهاب إليه بندر عباس! جعلتني الأخبار التي سمعتها من بورسعيد أهنئ نفسي على الترتيبات التي سبق أن أعددتها قبل مغادرتي لندن لمواجهة تطورات محتملة. إذا كان سقوط مكة وشيكاً فكان من المؤكد أن ابن سعود سيسارع في المجيء إلى الحجاز ليسيطر على الوضع المتفجر هناك. كانت غايتي أن ألتقي به لأحصل منه على إذن للقيام برحلتنا، وبالتالي اختصر الوقت بالسفر بمرافقته براً للقاء روزيتا في المكان المتفق عليه؛ ولذلك توجهت إلى الدكتور ناجي الأصيل الممثل عن مناطق الحجاز في لندن للحصول منه على إذن لزيارة جدة مع الأخذ بالحسبان أنني كنت صديقاً لكلا الطرفين، ويمكن أن أحاول التوسط بين الفريقين من أجل التوصل إلى تسوية سلمية لنزاعاتهم. كان الملك حسين قد تنازل عن العرش وغادر الحجاز. وكان الملك عليٌّ الذي خلف والده في

الحكم في الخامس من أكتوبر (تشرين أول)، في وضع محفوف بالمخاطر لدرجة تجعله يتمسك بأي قشة أمل؛ ولذلك أبدى موافقة فورية على اقتراح طرحته بنية طيبة تماماً. كان في جعبتي سهم آخر.. فجاءت أخبار بورسعيد لكن اتضح فيما بعد بأنها لم تكن صحيحة لتحملني على استعمال ذلك السهم. ذكرت بعض التقارير أن ابن سعود كان في طريقه إلى مكة البلد الذي كان السعوديون قد دخلوه بسلام بعد تراجع الملك علي إلى جدة. ويقال: إن الهجوم عليه كان وشيكاً، وكانت الآمال تراودني في الوصول إلى هناك في الوقت المناسب لأشاهد النهاية المحتومة. على أية حال لم يكن من الممكن أن أعد ترتيباتي للوصول إلى هناك من منطقة السويس دون بعض الصعوبات أو التأخير. لكن قبطان رجستان وهو الكابتن وولكر حل لي تلك المشكلة بأن وافق أن يقترب كثيراً من الميناء شريطة أن أرتب موضوع تأمين زورق بخاري. وإلا فكان يتوجب علي أن أذهب إلى بندر عباس. قبلت عرضه وعليه أرسلتُ برقية إلى جدة. غادرت السويس وأنا غير متأكد من محطتي الأخيرة إلى أن جاء صباح يوم الثامن والعشرين من تشرين أول حيث ظهرت على مسافة بعيدة "الشقيقة التوأم" وهي تقترب وسط ضباب على مدى سواحل الحجاز. وبعد فترة وجيزة علمنا من البرج بأن أحد القوارب كان يقترب من سفينتنا... وفي خلال ساعة أو نحو ذلك كنت أشق طريقي على متن زورق بخاري ينطلق بسرعة باتجاه سفينة لا تزال معالمها بعيدة عن أنظارنا.. لكن سفينة رجستان كانت بعيدة عنا تتجه جنوباً وكان عدد ركابها قد نقص راكباً واحداً !

سارت الأمور بذلك الزورق على أحسن حال، وفي رصيف ميناء جمارك جدة استقبلني مفوض جليل مهيب وأخذني بالسيارة على الفور إلى مقام الملك عليٍّ الذي استقبلني بالعناق والتلهف لرؤيتي. كان لسقوط الطائف وقع بالغ في نفوس

أهالي جدة الذين كانوا في تلك الفترة عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم. كان من المتوقع أن يحدث الهجوم السعودي في أية لحظة، كما أن سجل الأعداء في مكة -الذي كان خالياً من العيوب- لم يدون أي شيء بتهدئة توتر أعصاب أهالي جدة. كان الناس مسرورين لكونهم تخلصوا من الملك حسين المستبد، لكنهم لم يكونوا راغبين في التقرب كثيراً من السعوديين. أما من كان بإمكانه التقرب من السعوديين فقد وضع البحر الأحمر بينه وبين الغزاة: بمعنى أنهم فضلوا أن يقضوا فترة الأحداث العدائية في ربوع السودان أو أرتيريا. في تلك الأثناء كان قد تم تشكيل نوع من الحكومة الشعبية لتعالج الوضع الراهن. وأصبح الملك مستعداً لقبول أية ترتيبات، وكانت العصابات تصول وتجول مستغلة حالة الفوضى السائدة. كان من المتوقع مني أن أؤدي دوراً بارزاً في تلك الأحداث المثيرة -الميلودرامية- لكن الصعاب بدأت تظهر أمامي، فخلال الساعات الأولى من وصولي تلقيت في تلك المرحلة الرسالة التالية من السيد آر بولارد الذي كان يشغل منصب القنصل البريطاني:

«سيدي الفاضل، أرجو أن أخبرك بأن حكومة جلالة ملكة بريطانيا، بعد أن سمعت عن نيتك في القدوم إلى جدة، طلبت مني أن أعلمك بأن الحكومة البريطانية لا تستطيع أن تسمح لك بالدخول إلى المناطق الداخلية من الجزيرة العربية نظراً للوضع المضطرب في المناطق الوسطى من الجزيرة العربية. وعليه أكون ممتناً وشاكراً لو تفضلتم في الإعراب عن تسلمكم لهذه المعلومة».

وقبل وصولي ببضعة أيام وصلت بعض التلميحات إلى الملك عليّ وإلى ابن سعود مفادها بأن حكومة جلالة ملكة بريطانيا لم توافق على زيارتي وأنه ليس لدي صلاحيات تخولني التفاوض باسمها. وهكذا تم التأكيد -وعلى أعلى

المستويات- على أن طبيعة زيارتي كانت خاصة وغير رسمية، وقد سبق التأكيد على ذلك في المراسلات التي بعثت بها إلى الملك علي وابن سعود. تأملت بشيء من المتعة في مهزلة الوضع الذي تجسد الآن في استقبالي بشكل حار بصفتي غير رسمي وفي القصر نفسه الذي حدث أن منعت من الدخول إليه قبل خمس سنوات وذلك عندما جئت بصفتي مبعوثاً معتمداً من قبل الحكومة البريطانية لإجراء مفاوضات يمكن التوصل من خلالها لإحلال تسوية للخلاف القائم بين الملك حسين وابن سعود. ولو أن الملك حسيناً كان في ذلك الوقت أكثر تعقلاً لما وجدنا الآن ابنه ووريثه أعزل مكشوفاً لأعدائه، كما كان من الممكن أن تكون سياسة الحكومة البريطانية الخاصة بالأشراف في مأمن من الانتقادات التي أدى فشلها إلى عاصفة من الشجب والإدانات. وكان غريباً أيضاً أن يتوجب على أشهر المنتقدين أن يقف في النهاية كما يقف الصديق عند الضيق، وعلى أتم الاستعداد لتقديم يد العون في ساعة النكبات. ومما كان أكثر غرابة في ظل تلك الظروف أنه كان من المفروض على الصحافة الإسلامية أن تشن عليه حملة إعلامية. وفي الوقت نفسه وصفتني المؤسسات البريطانية الأكثر رجعية على أنني (تاجر سلام) من المفروض فيه أن لا يدخل متفائلاً في مكان كانت الحكومة البريطانية قد خرجت منه يائسة. ومما أعزي به نفسي هو أن الناس -الذين يعنيهم فعلاً تجنب مجزرة يمكن أن يقوم بها العدو الشرس- أعربوا وبصراحة بأنهم سروا كثيراً لوجودي بينهم. ومن ناحية أخرى فإن سياسة الحياد البريطانية -والتي كانت صائبة تماماً في الوضع الذي نجم في السابق عن فن بريطانيا في إدارة شؤون البلاد- كلفت أهالي جدة العديد من الأرواح: إذ بلغ عدد الضحايا خمسة وعشرين ألف ضحية على مدى اثني عشر شهراً من البؤس والمرض والجوع. كان مجرد

النظر إليهم وهم في المراحل الأخيرة من الإرهاق شيء يستدعي الشفقة، إذ كانوا يزحفون على أيديهم وأرجلهم -لعجزهم عن النهوض والسير على أقدامهم - وكانوا يستجدون الماء لا المال، كما كانوا يبحثون في روث الخيول عن حبات الشعير التي لم تهضمها بطون الخيل.

دلت العاقبة -إن لم تكن الأمور واضحة من البداية- على أن التوصل إلى تسوية سلمية كان أمراً غير وارد. كان هناك استثناء واحد مشروط، كان الملك علي ومستشاروه قد رفضوا النظر فيه واستمر رفضهم إلى أن أجبرهم منطق الأحداث على التمعن به. حلت اللعنة بعائلة الهاشميين لدرجة أنه يتعذر على قدرات بني البشر إصلاحها. ولو أن الحكومة البريطانية أدركت هذا الجانب الحيوي في الوضع لربما وفرت على نفسها الاهتمام بما كنت أقوم به من أعمال.

أعربت للقنصل البريطاني بإيجاز عن علمي بفحوى رسالة الحكومة البريطانية واعتبرتها بياناً حقيقياً ينطوي على تهديد مفاده: أن مخالفة الأوامر يمكن أن تسفر عن طردي من الخدمة -إذ كنت من الناحية العملية الدبلوماسية على رأس الخدمة لكني متمتع بإجازة من العمل- كما يمكن أن يسفر عن مصادرة رواتبي التقاعدية بقصد التغريم أو دفع الغرامة. وخشية مني على أسرتي لم أجرؤ على المغامرة بذلك. لكن حيال الوضع آنذاك لم تكن هناك حاجة للاستمرار في التوغل إلى المناطق الداخلية خاصة أن ابن سعود لم يكن قد بدأ المسير باتجاه مكة. علاوة على ذلك كان ابن سعود قد أصدر أوامره إلى قائد قواته في مكة وهو خالد بن لؤي أمير -الخرمة- وبموجبها منعه من التحرك باتجاه جدة. وعليه آثرت أن أنصح الملك علي بالامتناع عن القيام بأي نشاط عسكري، كما قمت بإرسال الرسائل إلى خالد بن

لؤي وإلى ابن سعود شخصياً واقترحت عليهما عقد اجتماع في الوقت والمكان المناسبين لمناقشة الوضع. وبعد أربعة أيام وصلني رد خالد الذي جاء فيه:

«من خالد بن منصور بن لؤي إلى المكرم فيلبي. وصلتنا رسالتكم وفهمنا فحواها كما أننا سنرسل رسالة أخرى عاجلة إلى السلطان عبد العزيز -حفظه الله- كما ستصلك الرسالة المرفقة التي نرجو أن تسلمها إلى القنصل. وتحتوي الرسالة على مطالبة ملحة بإزاحة علي بن الحسين عن جدة أو عزله عن رعاياه بسبب نضاله ووقوفه في وجهنا ووجه رعايانا علاوة على إيقاف المعونات وتحريض قبيلة حرب. سأنتظر الرد منك ومنهم وعليه أصلي وأسلم على سيدنا محمد وعلى آل بيته وصحبه أجمعين... الرسالة مؤرخة في شهر ربيع الآخر من عام ١٣٤٣ هـ الموافق لشهر نوفمبر (تشرين الثاني) من عام ١٩٢٤م».

وعلى الرغم من لطف تلك الرسالة إلا أنها من وجهة نظر علي لم تكن واعدة بالخير، علماً بأن الباب ترك مفتوحاً للمزيد من المفاوضات. على أية حال لم يتحقق أي تقدم وبقيت الأمور على حالها إلى أن قدم ابن سعود إلى مكة. في تلك الأثناء كانت جدة كمن أرجأ حكم تنفيذ الإعدام بحقه. حاول علي ومستشاروه بكل جهدهم تحويل فترة الراحة التي كانت تنعم بها جدة للاستفادة منها في إعداد المدينة تحسباً من حصار محتمل. وعند أول بادرة تصادم كان جيش الملك حسين قد تلاشى في الهواء وكان قائد قوات ذلك الجيش وهو شخص من أصل عراقي يدعى صبري باشا أول من رحل حاملاً معه مبالغ ومكاسب كبيرة حققها له منصبه الرفيع المستوى. والجدير بالذكر هنا أن صبري باشا هذا كان مهندساً مدنياً لا علاقة لتخصصه في أمور قيادة الجيش. وفي منتصف شهر أكتوبر (تشرين أول) لم يعد هناك وجود لأية قوة عسكرية مسلحة سوى قوة السعوديين.

وكانت تتم في مناطق فلسطين والأردن وسوريا محاولات جادة لتنظيم المزيد من الشبان في صفوف قوات الأشراف والأشخاص الذين التحقوا بالخدمة كانوا من الشباب المتدني على الصعيدين الاجتماعي والثقافي. فكانوا من أنصاف المتدربين القتلة المستأجرين والطائشين المتبجحين الذين لا عمل لهم. وكانوا من كافة الأشكال والأصناف.

قام الأمير عبدالله ومن خلال موقعه في الأردن باتخاذ دور نشط في تقديم العون لأخيه الأكبر ليتمكن هذا الأخير من الصمود في وجه ذلك الخطر. لكنه حيال ذلك الخطر وجد نفسه مجبراً على الفرار المشين من أرض المعركة في تربة في عام ١٩١٩م. وبفعل وعود تمت على نحو غير مُتَروٍّ فيه وبأساليب مليئة بالعيوب والأخطاء تم ترحيل المئات من هؤلاء الناس على القطار المتوجه إلى معان، ومن هناك ساروا على الأقدام إلى العقبة ليركبوا القوارب الحجازية المتجهة إلى جدة. قامت السلطات البريطانية بمحاولة -لكنها لم تكن جدية بمعنى الكلمة- لإحباط وعدم تشجيع انخراط الناس في خدمة الجيش وخاصة في المناطق الخاضعة للانتداب البريطاني. لكن إجراءات انضمام الناس للخدمة العسكرية استمرت وذلك لإنجاز المهمة الفاشلة من حيث المبدأ في الدفاع عن جدة قبل أن تتلاشى أية آمال لإنجاح تلك المساعي. اتضح ذلك الفشل عندما اتضح أنه لا توجد أموال تغطي رواتب هؤلاء الناس، كان معظم رجال الدفعة الأولى التي وصلت في أوائل شهر أكتوبر (تشرين أول) من الضباط الذين كانوا يبحثون عن المناصب والرتب العسكرية. حدث في مرحلة من المراحل أن بلغ عدد الضباط في الجيش المحلي أكثر من عدد الجنود. ومن بين هؤلاء الضباط كان رجل يدعى تحسين باشا الفقير حيث إنه رُشح عندما سنحت الظروف ليشغل منصب القائد الأعلى(لفصائل النصر).

سبق أن شغل تحسين باشا هذا مناصب متنوعة في الأردن، وأصبح يتباهى ويتفاخر بسجل طويل من الإنجازات العسكرية التي تعد خيالية في معظمها بما فيها الدفاع عن قلعة شطلجة ضد الفيلق الروماني والحملة ضد الروس في حقول ثلج القوقاز. أما تحسين الفقير فشغل فيما بعد منصباً رفيعاً في الجيش السوري ليصبح مع مرور الأيام بطل ميسلون الأوحد. حدث في تلك الموقعة أن اندحرت القوات السورية تماماً أمام القوات الفرنسية التي لم تترك لتحسين الفقير أي خيار سوى خيار العيش لخوض معركة يوم آخر، والحق يقال إن أفراد الجيش السوري قاموا بمآثر بطولية مجيدة في تلك الموقعة. والآن ها قد جاء فجر اليوم التالي وكان كل ما تبقى عليه أن يفعله هو أن ينظم قواته وعتاده على شكل معين. وفعلاً قام بتنظيم قواته المدافعة ليثبت للسعوديين بأنه من غير المجدي لهم أن يخوضوا معركة ضد قائد عسكري محنك.. لكن الواقع فرض أن يقف تحسين الفقير ليؤدي التحية لشجاعة السعوديين التي أصبحت تروى على كل لسان. وقف تحسين الفقير ليقول بأنه سيهزم السعوديين ويجعلهم يتقهقرون إلى مضاربهم في الصحراء، وبعد ذلك يتفرغ للمهمة الكبرى في حياته العسكرية ألا وهي تحرير سوريا وفلسطين من سطوة النير الأجنبي. ألهب حديثه المعسول إحساساً في الثقة عند المجتمعات العربية البائسة، وبدأ الملك علي يتخيل بأن بمقدوره أن يفاوض من موقع قوة. وبفضل مساعدة قدمها ضابط تركي مهندس يدعى نورس بيه نجح تحسين الفقير في تصميم خط دفاعي رائع يمتد من البحر إلى البحر وبنصف قطر يبلغ حوالي ميل عن المدينة. أقيمت على طول هذا الخط أسلاك شائكة مزدوجة كانت الحرب العظمى قد خلفت كميات كبيرة منها. كما تم وضع المدافع وبناء استحكامات بداخلها مدافع رشاشة، كما تم زرع الألغام وحفر الخنادق وما إلى ذلك من أمور

أخرى. وبداخل هذه المنطقة المحصنة أقام القائد العام تحسين الفقير مكتباً خاصاً به ليشرف على تدريب الأفراد الذين ألحقوا بالخدمة والذين استمر تدفقهم على دفعات. كان هؤلاء الأغرار يتدربون على المسير العسكري كما يتلقون دورات في فن استخدام الأسلحة الخفيفة. استمروا في تدريباتهم حتى منتصف شهر تشرين أول وهو التاريخ الذي تم فيه تشكيل (فصائل النصر) ولا شيء يمكن أن يثبت جدوى وفاعلية هذه الفصائل سوى النصر بحد ذاته.

والآن أصبحت ليالي جدة أقل قلقاً وخوفاً من الليالي الماضية، كما أن الترتيبات الدفاعية التي بدت ظاهرة للعيان ما هي إلا من صنع أيدي رئيس أركان محترف. وفي الرابع عشر من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) قامت كافة قوات الجيش باستعراض عسكري بكامل زيها الرسمي، وفي اليوم التالي مرت (فصائل النصر) من أمام مبنى الحاكم. وهناك وقف الملك علي وقفة عسكرية يحيي بها تلك القوات التي جابت أيضاً شوارع المدينة لتأكد للمواطنين بأنه ليس هناك ما يستدعي الخوف. وحتى فصائل البدو غير المدربة التي تبدو عليها السمة القتالية شاركت مع جمالها وخيولها المزركشة في ذلك الموكب الاستعراضي؛ وذلك لتزيد من بهرجة تلك الإجراءات ولتقلل من الانتقادات الموجهة إلى صغر تعداد القوة النظامية التي لم تكن لتتجاوز الألف رجل.

استمر موكب الاستعراض وسارت معه الفرق الموسيقية الملكية تتبعها فرقة موسيقى الجيش. ومما لا شك فيه أن الاستعراض بحد ذاته كان نجاحاً كبيراً، أما سكان جدة -الذين كانوا يفضلون الموت على المشاركة في الدفاع عن أوطانهم- فكانوا سعداء. وبدؤوا يتساءلون: ألم تكن جدة هي التي قاومت الغزو الذي شنته القوات الوهابية نفسها في مطلع القرن العشرين في حين كانت بقية مناطق الحجاز مستسلمة؟ أليس التاريخ عند مرحلة يعيد بها نفسه؟

وبعد مضي أربعة عشر يوماً تم ترقية تحسين باشا إلى رتبة لواء وأصبح وزيراً للحربية وبدأ يستقبل المهنئين والمعجبين من عامة الناس بحياء يتناسب مع المناسبة. قرر تحسين باشا مصير هؤلاء الناس -دون أن يدري ماذا كان يفعل- وذلك بأن أخطأ في الحكم على أمر جعل العدو يفهم منه أن جدة كانت مستعدة للصمود أمام محنة الحرب. كان استعراضه للقوة العسكرية قي جدة قد أضعف تماماً موقف المستفيدين من السلام، كما وصلت دفعة جديدة لتبرهن دون أدنى شك بأن جدة منيعة لا يمكن قهرها أو إذلالها. كانت الحكومة قد تفاوضت على صفقة من الطائرات وذلك عن طريق الجنرال فوستر نيولانرزر، وعليه ذكرت التقارير بأن ثلاث طائرات كانت قد غادرت إنجلترا. رفضت الحكومة البريطانية مستخدمة حق الفيتو إرسال معدات عسكرية أخرى بسبب موقفها المحايد، لكم كان بإمكان الملك علي أن يأمل في أن يكون في وضع عسكري أفضل عند موعد وصول ابن سعود إلى مكة. لو استخدم الملك علي تلك الفترة واستغلها في التحضير لحل سلمي على أساس قدرته العسكرية في مقاومة الهجوم لكان من الممكن أن يكون في وضع مناسب للمفاوضات. لكن كما سبق وأن أشرت كان من الضروري عدم فعل أي شيء تحسباً من إثارة سخط السعوديين الذين لا يمكن شن هجوم فاعل عليهم بتلك الوحدة العسكرية الصغيرة الموجودة في جدة. سبق وأن تذمر خالد بن لؤي من انقطاع الإمدادات وعدم وصولها إلى مكة، كما تذمر من تحريض قبيلة حرب على الأعمال العدائية.

من الواضح أن مثل هذه القضايا كانت قابلة للتسوية لكن بعد إجراء مشاورات مع الملك علي والحصول على موافقته أرسلت إليه رسالة ذكرت له فيها أنه إلى أن يحين وصول ابن سعود يسرني أن أجتمع به في أي مكان لمناقشة تلك القضايا مع

احتمال ترتيب هدنة مؤقتة. وخلال الأسابيع التي تلت مباشرة سقوط مكة كان الرسميون في حكومة الأشراف قد سمحوا بإبقاء الباب مفتوحاً أمام التبادل التجاري بين البلدتين، وجاءت النتيجة أن كان بمقدور العاصمة الأم أن تطرح كميات كبيرة جداً من المواد الغذائية ليستفيد منها أبناؤها كما يستفيد منها تجار جدة. لكن ما إن تم بناء وإعداد السور الدفاعي حتى أوقف تحسين باشا هذا الإجراء. وجاء رد خالد على ذلك بأن منع كافة الاتصالات مع الميناء. كان من الممكن لأية هدنة مؤقتة أن تخدم كلا الطرفين. وفي محاولة مني في تبني هذه المبادرة حظيت بدعم وزير خارجية حكومة الأشراف فؤاد الخطيب الذي كان قد عاد من إيران بعد أن أخفقت مهمته فيها. كانت مهمته قد تأثرت كثيراً بالتقارير المتعلقة بوضع السعوديين في مكة. ووصل مع فؤاد الخطيب السيد أمين الريحاني وهو أمريكي من أصل لبناني مشهور على أنه فيلسوف ورحالة وشاعر وكاتب. وكان الريحاني قد تنقل بين أجزاء مختلفة من الجزيرة العربية ونشر كتاباً له بعنوان (ملوك العرب)[1]. إن ما جعله في مصاف (تجار السلام) كان تحيزه لصالح ابن سعود. كما تعززت صفوف تجار السلام عند نهاية ذلك الشهر بوصول شخصية لم تكن أقل مستوى من شخصية الريحاني هو السيد طالب النقيب الذي سبق له أن شغل منصب وزير الداخلية في حكومة العراق المؤقتة. ومنذ أن أمر السير بيرسي كوكس بترحيله عن بغداد في نيسان عام ١٩٢١م والسيد النقيب يعيش حياة الترف في المنفى، فسمح له بعد أن قضى فترة من السجن في أحد معسكرات الاعتقال في سيلان، بالسفر حيث شاء باستثناء بريطانيا وتركيا. وقد سبق له الذهاب إلى ألمانيا وزار برلين وهامبورج وميونخ والنمسا. كان من الممكن أن يسهم سجل

(١) «ملوك العرب»، طبع في القاهرة في عام ١٩٢٤م، في جزأين. (المؤلف).

مغامراتـه العاطفية في إثراء مغامـرات أبطال الفرسان العرب. وفيمـا بعد سمح له بالإقامة في مصر إلى أن يحين موعد عـودته إلى البصرة بعد الإعلان عن الدستور الجديد في العراق والذي حدث فعلاً في شهر مايو (أيار) عام ١٩٢٥م.

في تلك الفترة عـرض عليه الأمير عبدالله أن يصـبح رئيساً للوزراء في مناطق عبـر الأردن خلفاً لـرضا باشـا الركابي. وبعد تسلمـه ذلك المنصب -مباشـرة بعد رحيلي- مـا فتئ رضا باشـا الركابي يعمل على تعـقيد الأمـور وتسخينهـا بسبب المكائد والنشاطات الأخرى التي كـان يقوم بها ضد السلطات الفرنسـية في سوريا التي كانـت تحت الانتداب الفرنـسي. أصر من خلفني في منصب رئيس الممـثلين الدبلوماسيين البـريطانيين على إزاحة الركابي من منصبه. وعليـه أبرق عبدالله إلى شقيقـه في جدة بأنه يجب أن يصبح رئيساً للوزراء في الحجـاز. سبق أن اقترحت على الملك علي بأنه من المفيد أن ينضم طالب إلينا في المفـاوضات مع ابن سعود. وعلى الفور أبرق له وطلب منه المجيء إلى جدة. جاء طالب إلى جدة، لكن بعد شيء من التردد وبعد محـاولة فاشلة قصد منها أن يرفع مكانة عـبدالله من اسمه. وربما كان يقاوم خجله في العودة مجدداً تحت مراقبة بريطانية مباشرة.

كان وجـود طالب بمثابة العلاج الشـافي من تعاظم العـداء (اللفظي) الصادر عن العسكريين الذي كان الملك يصغي إليه بـتعاطف آملاً -بشكل يائس- بأن يرى القوة العسكرية وهي تعـيد الوضع إلى حاله الطبيـعي. كان ساذجاً سـهل الانخداع على نحو غريب، كما أن تأخر ابن سعـود في الوصول إلى مسرح الأحداث جعل الناس تبدأ في التساؤل عما إذا كان السعوديون فعلاً خطرين كما سبق لهم وأن تصوروهم. على أية حـال كان السـواد الأعظم من الناس يميل في تطلعـاته إلى السلام. وكـان هناك فريق صـغير -لكنه مـهم جداً- من الانهزامـيين الذين رغبوا في انتـصار ابن

سعود أو رغبوا عـلى الأقل في سقوط أو اختفاء الأسرة الهاشـمية التي لم يشاهدوا بسبـب استمـرار وجودها بصـيص أي أمل في المستـقبل. ومن الواضح أن الـبديل الوحيد للنظام القائم كان ظهور حكم سعودي. وعليه استغل قادة هذا الفريق الوقت وأقاموا علاقات تجسس سرية مع العدو. كانت تلك لعبة خطرة، كما أن فشل الملك علي في سحق مثل هذه الجريمة في مهدها جاء بمثـابة شهادة صارخة على ضعفهم، وعلى انعدام الدعم الجماهيري لهم. في الواقع كانت إحدى الأسر القيادية في جدة تبرز بشكل قوي وكامل. والمشكلة التي كانت دائمـاً مثار تعجب بالنسبة لي، هو أن كبير تلك الأسرة ويدعى الحاج عبدالله علي رضا تمكن من الاحتفاظ بمنصب الحاكم المدني لجدة طيلة فترة الحصار التي تعرضت لـها. لم يكن عبدالله علي رضا متورطاً شخصياً في المكائد ضد العدو، لكنه أوضح دائـماً بأن مصلحة الناس تسبق مصلحة الأسرة الحاكمة. وكان يقول: لو كان الشرط الضروري لإحلال السلام يتطلب رحيل الملك علي لوجـدتني أؤيد رحيلـه، علماً بأن ابن أخـيه والمدعـو قاسم زينل زعـيم المنشقين. وهو وكـيل سابق في البـرلمان التركي، وكان الناس ينظـرون إليه على أنه شخصية بارزة مثقفة في الأوساط الاجتماعية بجدة.

عمل حزب الـوطن على إزاحة الملك حسين وتخليه عن العـرش لصالح الملك علي، وكان ذلك الحزب قد شُكل لهذا الغرض بالذات، كما ضم في صفوفه كافة الشخصيات القيادية في المجتمع. وساد الأمل بأن الأمور ستكون على ما يرام عند التخلي من (بعبع) ابن سعود، وعندما اتضح للجميع بأنه لم يكن لدى ابن سعود أي نية في التـخلي عن المكاسب التي حققـها، بدأت الفرقة والخـلافات في الرأي تمزق وحـدة صف ذلك الحزب. بقي رئيس الحـزب الشيخ مـحمـد الطويل على إخلاصه للنظام، إذ كان يشغل منصب مدير الجمارك، ويشرف إشرافاً مباشراً على

موارد الدولة المالية. وسانده في ذلك الموقف أصدقاؤه وطالبوا بالتوصل إلى سلام مشرف. وللأمانة أقول هنا بأن محمد الطويل حافظ على إخلاصه للملك علي وللقضية الهاشمية لدرجة أنه أنفق ثروته الباهظة التي جمعها من عمله في ذلك المنصب في الدفاع عن الهاشميين. وأصبح قاسم زينل القائد الفعلي لإحدى الحركات التي كانت قد أُنشئت لإعادة النظر في سياسة الحزب، وتم الانفصال بين الحزب والحركة، ونشر ذلك في بيان صدر عن جريدة الأهرام المصرية. كان وراء ذلك التقرير فريق الانهزاميين، وجاء فيه أن الحزب الوطني انتهى ابتداء من الخامس والعشرين من تشرين أول. كان ذلك تحدياً وكان من تأثيراته أن أحيا جماعة المتشددين وفتح عيونهم للخطر، كما نبههم لمبررات توقف التواصل التجاري مع مكة الذي كانت تتم من خلاله عمليات خيانة مع الخصم

وفي السادس من نوفمبر (تشرين الثاني) وبموجب العثور على دلائل قطعية عن تلك الخيانة تم اعتقال أربعة من سكان مدينة جدة[1] وأودعوا السجن بانتظار محاكمتهم أمام المحكمة العسكرية بتهمة الخيانة. لم يكن حتى ذلك الحين قاسم زينل متورطاً في تلك المسألة عالماً بأن الأشخاص الذين تم اعتقالهم كانوا على علم يقين بأتباعه. وأصبحت في ورطة مع أول استعراض للقوة بين معسكري الانهزاميين والعسكريين. بدى للحظة الأولى أن الأوراق الرابحة كانت بيد تحسين باشا الذي كان بإمكانه أن يحسن استعمالها. طال مدى المحاكمة يوماً بعد يوم: فكان المتهم ينفي تهمة إرسال الرسائل، كما أنه كان ينفي أن يكون جمال الطويل كان قد صرح علانية أن القوات المتوافرة كانت غير قادرة على الدفاع عن جدة في وجه أي هجوم.

(١) علي سلامة، سليمان عزايا، عبدالله شطا (الصغير) وحضرمي اسمه عمر. (المؤلف).

والجدير بالذكر هنا أن جميل الراوي كان لا يزال في تلك الفترة وزيراً للحرب لكن أعفي من منصبه ذلك بعد فترة قصيرة. إن ما تم البرهان عليه بشكل قاطع هو أن هذه المراسلات تمت عبر مواقع مختلفة للبدو موجودة في المناطق غير الخاضعة لسلطة أي إنسان والواقعة بين جدة ومكة: كانت النسوة من تلك المواقع تقترب من الخط الدفاعي لجدة وكأنهن لا يعلمن بأن تلك الحدود كانت مناطق محظورة، وكن يتجسسن على ترتيبات المدافعين، وكن يحملن الرسائل التي لم تحمل أي اسم بالطبع ويوصلنها إلى العدو. وقد تمكن جواسيس تحسين من مصادرة العديد من هذه الرسائل ولعلهم كانوا يشترونها من النسوة أنفسهن. وأثناء استمرار المحاكمة اتضح أن قاسم نفسه كان متورطاً إذ كان قد دفع إلى أحد البدو عشرة جنيهات ليوصل رسالته إلى أصدقائه في مكة، لكنَّ أحد الخدم أو واحداً من أفراد عائلته وشى به إلى محمد الطويل الذي أرسل بدوره رسولاً على عجل تمكن من مشاهدة البدوي بالقرب من الهدا وأخذ الرسالة منه مقابل رشوة زادت على عشرة جنيهات. وعليه وجد قاسم نفسه في السجن مع أصدقائه وكانت هناك أدلة دامغة ضده.

أصبح الجو العام في جدة مكهرباً، وأصبحت خيوط اللعبة تُشد في كافة الاتجاهات. ادعى قاسم في حقه بالحصانة الدبلوماسية بسبب وضعه بصفته ممثلاً قنصلياً لقوة بسيطة، لكن تحسين باشا كان مصراً على أن يجعل من حالته مثالاً للمسيئين. وبالتالي يضع حداً لحدوث المزيد من أعمال الدسائس والمكائد تلك. كانت الحكومة مقتنعة بضرورة الاستمرار في الإجراءات القانونية على أمل أن يلقي المتهمون بأنفسهم تحت رحمة الملك، بمعنى أن يعترفوا بذنوبهم، وأن يطلبوا العفو عنهم شريطة أن يغادروا البلاد لفترة من الزمن. وبسبب الأسلوب الذي نهجه

الطويل فلم يكن هناك سوى قضية واحدة أمـام القضاء، لكن لم تكن لديه الرغبة في تقوية مكانة الجماعة العسكرية المتـشددة. دلت غايته التي أفصح عنها بأنه كان ينوي أن يدخل الشفقـة والرحمة بإجراءات المحـاكمة؛ وذلك استجـابة منه لمشاعر الناس. وأيده في هذا التوجـه فؤاد الخطيب وأمين الريحاني. انتـهت المحكمة من إجراءاتها في الثالث عـشر من نوفمبر (تشرين الثانـي) وصدر حكم بإدانة المتهمين كما صدر حكم الإعدام على أربعة منهم، أما عـبدالله شطا، فقد تمت تبرئته لعدم توفر أدلة كافـية لإدانته. لم يكن هناك الوقت الكافي لتـوجد أمور الإدانة وأحكام الإعدام نوعاً من الضـجة والاهتياج؛ لأنه تم إطلاق سراح المتهمين بـسبب العفو الملكي الذي صدر بحقهم والذي بموجبه عادوا أحراراً إلى بيوتهم.

ساد الاعـتقـاد بشكل عام -ولعل فيـه شيء من الحقـيقة- بـأن كل واحد من المتهمين دفع طوعـاً ألفيْ جنيه إسترليني مـساهمة منه في دعم ميـزانية الدفاع وتم إشعارهم بأنه بإمكانهم السفر للخارج للاعتناء بـصحتهم. وقد دل الهبوط المفاجئ في التصعـيد الذي طرأ على القضية على صـدق نبوءة الانتصار التي حققـه أخيراً المدافعون عـن النظام المترنح المتداعي، وتجلى ذلك في القرار الذي اتـخذه الرجال الأربعـة في عدم المغـادرة والبقاء فـي جدة. كان من غـير الوارد أن يرد الـرجال الأربعة على قـرار العفو الصـادر بحقهم بأن يصـبحوا مـوالين ومخلصين لقضـية الملك. وكان من المؤكـد أنه في يوم من الأيام سينتقمـون للإهانة التي لحقت بهم. دلت الحقيقة على أنه كان في جدة فعلياً ستة رجال ممن لديهم الشجاعة على إبداء إيمانهم الراسخ بموقفهم، ولديهم القدرة على وزن الأمور ومعرفة حقيقة الوضع.

بعد ذلك الحدث تركت جدة في سـلام لتستخلص أفضل ما يمكن اسـتخلاصه لخدمة مسـتقبلها المتعـثر. وبعد مرور يومين على إسدال الستـارة على ذلك المشهد

الفكاهي علم كافة الناس أن ابن سعود غادر الرياض في طريقه إلى الحجاز. وأصبحت اللحظة الحاسمة في اتخاذ قرار إما بالحرب أو السلم قاب قوسين أو أدنى، وأصبح الناس يشعرون بتوتر الجو، وأن الظروف أصبحت مهيأة لاتخاذ إجراء ما. منع خالد سفر المواطنين والتنقل بين جدة ومكة، ووضع قواته في حالة تأهب تام في أحد المعسكرات خارج المدينة ليحجبها عن الأنظار. والأكثر من ذلك أنه كان يجتمع بعد عناء كل يوم مع وجهاء المدينة ليضمن أن الأهالي كانوا يتصرفون عن نحو مثالي. وكان الملك حسين الذي كان في ذلك الوقت لا يزال في العقبة، قد أرسل برقية إلى ابنه يحثه فيها على الثبات في المنطقة التي انطلقت فيها الثورة العربية. وقد أعد فؤاد الخطيب مسودة جواب على تلك البرقية وأحدثت تلك المسودة جواً من الضحك في مجلس الحكم الذي شارك فيه الملك علي علماً بأنه في النهاية تقرر عدم إرسال أي جواب أو رد عليها. جاء في تلك المسودة أن جدة عازمة على التمشي مع رغبات صاحب الجلالة، وأنه من الممكن تحقيق ذلك بشكل جيد إذا تكرم الملك بالمساهمة في مبلغ مالي بسيط مما جمعه من ذهب قبل مغادرته الحجاز. وقدرت تلك الأموال في مجملها بـ ٨٠٠,٠٠٠ جنيه إسترليني ذهبي تم جمعها من مشاريع اقتصادية ضخمة تقدمت بها الحكومة البريطانية خلال أيام الحرب، إضافة إلى الضريبة الملكية التي كانت مفروضة على كل جمل يحمل حجاجاً من جدة يتجه باتجاه المدينة. بلغت تلك الضريبة خمسة جنيهات على الجمل الواحد علاوة على ضريبة بلغت ثلاثة جنيهات على كل (مطوف) يدخل مع حجاجه إلى منطقة مكة. عُرف عن الملك أيضاً أنه كان يملك حوالي خمسة آلاف فدان في مصر.

جاء في تقرير لوكالة رويتر من عمان بـأن الوكالة تلقت أخباراً مؤكدة من جدة مفـادها أن الملك علي بادر في الاعتـداء، وأن الجيش الهاشـمي كان يتقـدم باتجاه مكة. وكانت القـوات السعودية في مـوضع دفاعي وكانت تخلي كـافة المواقع بين المدينتين! لكن الحقيـقة هي أن الخصم وبموجب أوامر صارمة من قـبل ابن سعود، لم يتقـدم شبراً واحداً وراء حـدود مكة، لكن حدث بعض التقدم باتجـاه ساحل جـدة وأعتـقد بأن ذلـك الزحف تم بموجب أوامر من ابـن سعـود. كانت فـرق الاستكشاف السعودية تقترب من مواقع الأشراف المتقدمة في منطقة الرحيمة والتي تبعد حوالي سبـعة أميال عن جدة. هذا وكان العريف المسـؤول عن مئة وخمسين رجلاً قد سارع في الـتوجه إلى قرية نزلة اليمانيـة التي تقع خارج الخط الدفاعي. ومن هناك بعث بتقرير شرح فـيه حدوث اشتباك مفاجئ وانتـصار قوات الأشراف على حوالي ثلاثين رجلاً من قوات الهجانة السعودية.

دلت التحريات على أنه وقع بالفعل تبادل لإطلاق النار وأنه سقط بعض القتلى من كلا الجانـبين. وبعد مضي أسبـوع جاء في تقرير أحد الأشـراف الذي كان قد هرب خلسة من مكة قبل يومين بأن خالد يعد قـوة لاحتلال آبار العزيزية -بالقرب من الرغامة- وآبار البـريمة التي تقع على بعد بضعة أميال إلى الشـمال الشرقي من جدة وبالتحـديد على الطريق المؤدي إلى عسفان. وبفعل الحـادثة التي وقعت قبل عدة أيام والتي تمخضت عن مشـاعر قوية، طلب مني مصطفى ناظر -الذي نزلت في ضيافته في جدة- أن أنصحـه بخصوص إمكانية إرسال طائرة لاستطلاع المواقع المشار إليها أعـلاه. والجدير بالذكر أنه كان لدينا طائرة حربيـة قديمة عديمة الجدوى من مخلفات النظام القديم. أجبت على ذلك بقولي: إنني كنت معنياً بترتيب أمور المفاوضـات السلميـة بين الطرفين، وإنه ليس من اختـصاصي تقـديم النصح حول قضية عسكرية محضة.

حدثت الحادثة المشار إليها سابقاً عندما استيقظت من النوم على صوت محرك طائرة. وعندما اقتربت من النافذة شاهدت بالفعل أن الطائرة كانت محلقة. وتمكنت من معرفة أنها كانت متجهة من بريمان إلى عسفان. بعدها استدارت الطائرة خلف التلال لتصل إلى منطقة ما في وادي فاطمة ربما تكون الهدا أو البحرة أو كلاهما ومن هناك عادت إلى مكان إقلاعها. ولو أن السعوديين شاهدوا أو سمعوا الطائرة لكانوا قد فسروا ذلك الإجراء على أنه عمل قصد به التحدي. أما في عشية اليوم السابق -وبعد أن قام طيار سوفيتي من إخراج الطائرة من مخبئها لإجراء اختبار تحليق عليها فوق مناطق جدة- تناولت العشاء مع الملك وكان معنا نخبة من كبار الرسميين. وفي سياق الحديث الذي دار بيننا شجبت بشدة فكرة إرسال الطائرة في مهمة استطلاعية فوق مناطق مكة. وكان الطيار السوفيتي الذي يدعى سيريكوف قد أطلعني على الأوامر التي تلقاها بخصوص ضرورة تحليقه بالطائرة فوق مكة وإسقاط منشورات على المدينة وعلى مختلف مخيمات البدو في تلك المنطقة. ومع وجود احتمال إجراء مفاوضات بدا لي أن ذلك كان عملاً في منتهى السخافة، وأعربت بالفعل عن ذلك الرأي بصراحة. وافقني كل شخص كان موجوداً معنا على رأيي، لكن تحسين لم يكن موجوداً معنا أثناء تناول العشاء، بل وصل متأخراً ليطلع الملك على الوضع وعلى الخطط المتعلقة بمهمة الطائرة في اليوم التالي. لم يكن بوسعي إلا أن ألاحظ النظرات الماكرة التي تبادلها عليٌّ ومستشاروه الذين لا بد أن يكونوا قد أعادوا النظر في تلك المسألة بعد أن غادرتهم ووافقوا على اقتراح رئيس أركان القوات بضرورة القيام بتلك المهمة. من غير الوارد أن يكون قد خطر ببالهم أن منظر الطائرة سيخيف السعوديين الذين سبق لهم أن استولوا على طائرة في الطائف وأحرقوها وذبحوا

الطيار الروسي بيروف الذي كان يقودها بعد أن هبط بها في المدينة لعدم علمه بأن العدو كان قد استولى عليها. كان حماسهم المتشدد بمثابة برهان ورد على أعمال ومخترعات الشيطان، كما أنه من المحتمل أنهم رددوا الآية القرآنية التي تقول: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ لكن تحسين أصابه الغرور وكان متلهفاً لاستعراض (لعبة) جديدة، وذلك ما منعه من الإصغاء إلى صوت المنطق. وبالمناسبة أقول هنا بأنه سبق أن قال لي بأنه لم يعلم بأنني كنت قد بعثت برسالة إلى ابن سعود. ربما يكون ذلك الادعاء وارداً، كما أنه من الممكن أن علياً لم يرد أن يطلعه بأنه كان يسعى بالدرجة الأولى لإجراء مفاوضات.

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم قام الطويل بإرسال مصطفى إليَّ ليؤكد لي بأن ذلك الخطأ لن يتكرر. وقال أيضاً بأنه يتوجب عليَّ في المستقبل أن أقدم نصيحتي خطياً لكي لا ينجم عنها أي سوء فهم، لكنني لم أوافقه على ذلك، طالما أن نصيحتي كانت لصالحهم مع الافتراض بأنهم في الواقع يريدون السلام، وفي حال رفضهم نصيحتي فلن يكون ذلك الأمر يعنيني، ولن أتحمل مسؤولية ما ينجم عن ذلك الرفض. وإذا كانوا مصرين على القتال فلا حاجة لبقائي، ولا حاجة لي في الحرص على حسن سير المفاوضات.

زارني في وقت متأخر من ذلك المساء فؤاد الخطيب ليخبرني بأن الجميع وافقوا على أن إرسال الطائرة أمر خاطئ، وبالتالي ليؤكد لي بأن تلك الفكرة لن تتكرر. وبالمناسبة استغل فؤاد الخطيب تلك المناسبة ليعرب لي عن أسفه بخصوص تفسير موقف الحياد الذي تبناه الدبلوماسيون الأجانب المقيمون في جدة. وقال بأن بولارد كان يتجنب ومنذ ثلاثة أسابيع أي لقاء له مع الملك، علماً بأن فؤاد ناشده شخصياً

العمل على ذلك. أما القنصل الفرنسي والقنصل الإيطالي لم ينأيا بنفسيهما عن الملك إلى ذلك الحد، بل قدم قادة قواتهم البحرية التي كانت مؤخراً في زيارة لجدة للسلام على الملك علي. أما قائد القوات البحرية البريطانية التي كانت تضم سبعة أو ثمانية سفن حربية والتي كانت قد زارت ميناء جدة في السادس عشر من الشهر نفسه فقد تجاهل تلك الرسميات كلية، علاوة على أن مدافعها لم تطلق التحية العسكرية المعتادة. لكن السفن الحربية الإيطالية لم تتجاهل هذا الإجراء المتبع، وأطلقت عن قصد طلقات مدافعها فور وصولها إلى الميناء. واعترافاً بهذه المجاملة وتقديراً لها أطلق مدفعان طلقتين كان قد تم وضعهما مؤخراً أمام معسكرات الجيش. وتذمر فؤاد أيضاً من أنه في الوقت الذي ادعى فيه الدبلوماسيون الأجانب الحق لأنفسهم في الاتصال مع السعوديين وجدهم يمتنعون عن إطلاع حكومة الملك على فحوى الرسائل المتبادلة فيما بينهم. وقد تزامنت الزيارات التي قامت بها وحدات هذه الأساطيل الثلاثة التي كانت تبدو على أنها غير رسمية مع اقتراب البدء بالأعمال العدائية المرتقبة ضد جدة التي ربما كان القصد منها تحذير السعوديين من أي تصرف عسكري أكثر من إدخال الطمأنينة إلى قلوب أهالي جدة.

كنت متلهفاً لمشاهدة بعض المناطق التي يمكن أن تدور بها المعارك، ذلك إذا كانت هناك أي معارك وشيكة الحدوث! وحدث أن أعد تحسين مشكوراً بعض الترتيبات لأقوم بجولة في السيارة لذلك الغرض تشمل مناطق المراكز العسكرية المتقدمة في الرغامة على أطراف المرتفعات. شريطة أن يكون نورس بيك في رفقتي. وعليه طلبت من السيد الطويل تأمين سيارة، لكن بدلاً من أن يرسل السيارة أرسل لي أخاه محيي الدين ليوضح لي بأنه بعد أن عرض الأمر على

الملك، أصر الملك بدوره على أن يـذهب معي مرافقـاً باعتبـار أن المناطق المتطرفة حول النقاط العـسكرية المتقدمة لم تكن آمنة. أدركت على الفـور أنهم لا يحبذون ذهابي إلى هناك، وطـلبت من الرسـول أن يعلم الطويل أنـني صـرفت النظر عن الموضوع طالما أن المسألة تستدعي مـثل ذلك الحرص على سلامتي. على أية حال، كان الجو عاصفاً بشكل بشع ومروع، وكان يومـاً كَثُرَ فيه العجاج، وكأن ذلك جاء تعويضـاً عن إلغائي لتلك الرحلة. لكن مـا حدث بالفعـل أن أرسل الطويل أخاه محيي الدين ومعه سـيارة، وقمنا بها بجولة تفتيش شملت كـل النقاط المتقدمة من المدينة زرنا نزلة اليمـانية، وآبار غليل، وقرى بني مـالك بالرويس. وهنا يجب أن أذكر أنه لم يكن لدينا الخبرة الكافية في التجوال بتلك المناطق؛ ولذلك أشعر طيلة الوقت بجو من الخوف لعـدم الإحساس بالأمان بين خيام البـدو المنتشرة في تلك السهول، عـلاوة على أنه لم تكن جماعات قـبيلة حرب في تلك الخيام خـاضعة لسيطرة تلك الحكومة العاجزة الواهنة. أمـا من الناحية العملية فلم يكن ولاء تلك الجماعات لأي طرف من الأطراف. وحدث قبل بضعة أيام فقط أن كان الملك علي قد أمـر بإيصال صندوقين من الذخيـرة لزعماء قبـيلة حرب، وذلك بتوصـية من الشريف ناصر الذي كان من الـناحية الاسمية مسـؤولاً عن شؤون البدو. كان من الوارد جداً أن يقـوم زعماء القـبيلة ببيع تلك الذخـيرة إلى القوات السـعودية في مكة؛ لأن أسعار الأسلحة هناك كانت مرتفعة جداً. على أية حال استمتعت بتلك الجولة وحصلت منها علـى فكرة عن طبيعة الأرض التي ستدور فوقـها المعركة من أجل الفوز بجدة. لعله تم اسـتشعار الوضع العام من خلال البرقـية التي بعث بها ابن سـعود إلى الملـك علي والتي أرسلت عن طريق البـحريـن، وقد وصلتـه في السابع عشر من تشرين الثاني. وكانت البرقـية بالتحديد موجهة إلى الملك علي بن الحسين إلا أنها كتبت من باب المجاملة على الشكل التالي:

«أنا شخصياً أكنُّ لك أعظم الاحترام، لكن الأمر يتعلق بالطريقة التي يعامل بها والدك سكان جدة والمسلمين الآخرين، والتي حملتني على اعتماد النهج الذي تبنيته. وعليه فإذا كنت راغباً في السلام وتجنب سفك الدماء فعليك الرحيل عن الحجاز وانتظار قرار العالم الإسلامي. فإذا ناسبك الأمر أو ناسب طرفاً آخر فسنرحب بقراركم ببالغ السرور، لكن إذا بقيت في الحجاز فستقع مسؤولية ما يمكن أن يحدث على عاتقك وليس على عاتقي».

حملت تلك البرقية توقيع سلطان نجد، عبد العزيز.

خلدت إلى القيلولة في عصر ذلك اليوم وحدث قبل وصول تلك البرقية أن حلمت بأن الملك علي قدم إليَّ شخصياً ليقول لي بأنه على قناعة بأنه لا يمكن حل ذلك الجمود إلا بتحكيم حد السيف، وعليه قرر أن يتوجه بقواته لمحاربة القوات السعودية. وعندما استيقظت علمت بأن فؤاد الخطيب كان قد أرسل رسولاً معه برقية تحمل تقريباً معنى الحلم نفسه الذي حلمته. لم أوافق على تفسيره لتلك البرقية وحذرته أنه بغض النظر عما يفكرون بالترتيبات التي أعدوها للحرب فإن القيام بأي عمل على غرار ما هو مقترح سيعود بالوبال على حكومة الأشراف. وأشرت أيضاً إلى أن البرقية كانت في صيغتها العامة مؤدبة لكنها مصاغة بشكل دقيق لا تستبعد إمكانية إجراء مفاوضات. فقال لي فؤاد: إن البرقية لم تترك انطباعاً طيباً في خاطر الملك، وإن فؤاداً أكد للملك على الجوانب السلبية فيها. وعندما انضممت إلى مجلس الملك علي في مساء ذلك اليوم ومعنا كبار الرسميين بمن فيهم تحسين وجدت الملك مكتئباً، لكنه كان لا يزال متفائلاً بإمكانية التفاوض. على أية حال، كان ابن سعود قد حدد شروطه ويمكن أن يكون وصوله إلى مكة قد أصبح وشيكاً ويتوقع أن يصله رد الملك علي على برقيته. نصحته وأنا جاد في

نصيحتي بأن عليه أن يذهب شخصياً لمناقشة الوضع مع ابن سعود رجل لرجل، لكنَّ الملك عليّاً لم يكن مستعداً للدخول إلى عرين الأسد، علماً بأنه يمكن أن يكون فيه في مأمن على نفسه، كما يمكنه أن يخرج منه حراً حتى إذا لم يوافق على شروط الأسد. كانت تلك أفضل فرصة ممكنة للتسوية والتوفيق بين الطرفين، أما الفرصة الثانية من حيث الجودة فكانت إجراء مفاوضات عن طريق التفويض. إن التفكير بالبدء بالهجوم على القوات السعودية بتلك القوة الصغيرة البائسة المتوافرة في جدة كان محض جنون، كما أن الدفاع عن المدينة لن يكون سهلاً في حال حدوث هجوم جدي.

في تلك الأثناء ظهرت بوادر تدل على حدوث بعض المشاكل في عدة مناطق من مملكة علي التي أصبحت منكمشة. كانت قبيلة حرب وعناصر قبلية أخرى -تمدها الحكومة بالسلاح والطعام- تفترس الأصدقاء والأعداء على حد سواء، وكانت تغير على أصدقائها أكثر من أن تغير على أعدائها. أما في رابغ فحدث مؤخراً أن تم تعيين إسماعيل بن مبيريك أميراً محلياً عليها، وبعد أن قام بزيارة إلى جدة ليقبل الأيادي ويعرب عن شكره للحكومة هناك لاحظ أن الوضع في مقر القيادة لم يكن ليغريه؛ لذلك قام إثر عودته إلى دياره بإرسال رسله إلى خالد ليبلغه عن عزمه الوقوف إلى جانب القضية السعودية. سادت الفوضى في منطقة رابغ وأصبح مشايخها في وضع مشوش يختلفون فيه في الرأي إلى أن أرسل محمد الطويل قوة صغيرة بقيادة ضابط شاب شهم يدعى حمدي -وهو من أصل عراقي سبق له أن أبلى بلاء حسناً في اشتباك مع السعوديين بالقرب من أبها- ليعيد النظام والهدوء إلى تلك المنطقة. وبعد أن وصل حمدي إلى الميناء سار ومعه اثنا عشر رجلاً باتجاه المدينة - وهي مسافة قطعها في حوالي ساعتين، وهناك لم يكتف

حمدي بإيصال رسالة الحكومة فقط، بل اعتقل ستة من كبار قادة الحركات المتناحرة وأحضرهم معه إلى محمد الطويل. وهكذا تم -ولو بشكل مؤقت- فرض الهدوء على منطقة رابغ، ولكنها سرعان ما سقطت فريسة سهلة في أيدي السعوديين. كان إسماعيل وأتباعه من رجال قبيلة حرب قد غادروا تلك المنطقة قبل أن يصلها حمدي وذلك بغرض مهاجمة أصدقاء لهم لصالح السعوديين. وهنا أستبق الأحداث لأقول بأن إسماعيل كان الشخص الذي قدم إلى ابن سعود في إحدى المراحل الحرجة المؤن ومبلغاً كبيراً من الذهب. ولم ينس الملك الراحل تلك الهدية التي وصلته من صديق عند الضيق، وبعد حوالي ثلاثين عاماً أي في عام ١٩٥٣م وبالتحديد قبل شهر أو نحو ذلك من وفاة ابن سعود حدث لقاء بين الرجلين، وكان اللقاء مؤثراً للغاية: كان أحدهما على عتبة الموت وكان الآخر يناهز التسعين من عمره مقوس الظهر ومقعداً بسبب الشيخوخة، إلا أنه لا يزال مرحاً. عندها قال ابن سعود: حسناً، يسعدني أن أراك ثانية. كيف أحوالك هل أعرست على فتاة مؤخراً؟

كان حمدي الذي أشرت إليه سابقاً لا يزال في الحجاز وله سجل طويل من الخدمات الجيدة مع أعدائه القدامى، لكن في منتصف عمره أصبح بديناً سميناً وأصبح الآن يشغل منصب الضابط المعاون للأمير فيصل.

شهدت منطقة القنفذة -وهي ميناء يقع إلى الجنوب من جدة- بعض المشاكل، وهناك تحول قائد الحامية العسكرية ليؤيد السعوديين وقال لرجاله: إنه باستطاعتهم الذهاب إلى جدة إذا رغبوا في ذلك أو الوقوف معه في تحالفه الجديد. في الحقيقة -باستثناء مناطق جدة ومكة التي تشرف عليها أجهزة إدارية فعالة- كانت الحجاز

تعيش حالة فوضى تامة، وكانت قبيلة حرب قد استغلت ذلك الوضع وطالبت بالاستقلال علماً بأن ذلك كان مطلباً غبياً. استعرضت جماعة قبيلة حرب عضلاتها في وجه السعوديين بتباهٍ وازدهاء. ولكن عندما حان الوقت كال لهم السعوديون من الضربات الموجعة في منطقة عسفان بالقرب من الليث ما لم يكن بمقدورهم الشفاء منها.

في تلك الأثناء وعندما كان ابن سعود في طريقه إلى الحجاز أرسل الرسل إلى المدينة ليأمروا قادتها بالاستسلام الفوري، واستسلام الحامية فيها وتسليم أسلحتهم وذخائرهم ومعداتهم اللاسلكية وأمور عسكرية أخرى إلى قائد قواته ويدعى صالح العذل من قبيلة شمر الذي كان قد وصل إلى الحناكية مع قوة من البدو. وقد وعد ابن سعود أهالي المدينة -إذا لبت شروطه- بالحصانة من أي تحرش، كما عرض ابن سعود على جماعات قبيلة حرب التي كانت تعيش في جوار المدينة أن يستسلموا إذا كانوا راغبين في تجنب عواقب تمردهم وعصيانهم.

أطلع قائد قوات الأشراف في المدينة الملك علي هذه التطورات، وأكد الملك بأن المدينة كانت قد هُيئت بشكل جيد لتصمد في وجه أي حصار. وفي اليوم نفسه تعاظمت مناعة جدة بوصول ثلاث طائرات من طراز دي اتش 9، واشتد أزرها مع وصول طيار حربي روسي آخر. لكن وصلت الطائرات دون وصول القنابل والذخائر؛ وذلك لأن الحكومة البريطانية سبق وأن منعت تصدير هذه الأشياء. وكانت بعثة سلام نظمتها لجنة الخلافة الهندية في طريقها إلى جدة برفقة فريق من الهلال الأحمر المصري. كنت في ذلك الوقت قد ذهبت إلى المعسكرات لزيارة نورس بيك، وكنا نقف على السطح لندرس خطته الدفاعية، وهناك سمعنا دويً

طلقات المدافع باتجاه بوابة مكة. لم يكن ذلك سوى فريق هجانة قبيلة حرب الذين قدموا ليزفوا خبر هجوم ناجح قاموا به على جماعة أخرى من حرب موالية للسعوديين كانت تحت قيادة عواد الذويبي الذي سبق له أن قاد هجوم الإخوان على مناطق الأردن في شهر أغسطس (آب). في تلك الحادثة كان البريطانيون قد أسروه وبعد أن أودعوه السجن لفترة قصيرة حملوه بالهدايا القيمة بما فيها سيف من الذهب وتركوه يعود إلى أهله بسلام. وعلى الفور التحق بالقوات السعودية وسار بكل رجاله للقاء ابن سعود، أثناء ذلك حدثت الغارة التي نحن بصددها التي أسفرت عن غنيمة ١٥٠ جمل وقطيع من الغنم استولوا عليها من نساء وأطفال القبيلة. وبعد بضعة أيام تصدى السعوديون إلى هجوم ليلي على مخيمات البدو القريبة جداً من جدة. وفر ضحايا الحادث من ذلك الموقع تاركين خلفهم أغنامهم فريسة سهلة في أيدي المغيرين، وكان واضحاً أن الأمور بدأت تستعر وأن اللحظة الحاسمة بدأت تقترب. لم ينعم الملك علي بالراحة والهدوء على مدى الشهرين اللذين انقضيا منذ أن تسلم الحكم. لكن الاختبار الكبير لمقدرته على الحكم كان آت لا محالة.

كان الطيار الروسي شيريكوف شخصية غريبة إذ ادعى بأنه ابن الأميرة أبولنسكي وأن أباه كان من الأثرياء، وكان يحصل على دخل سنوي بلغ عشرين ألف جنيه إسترليني، وذلك من عائدات حوالي عشرين ألف هكتار من المزارع. وقال بأنه قبل الحرب كان يعمل في الحرس الاستعماري تحت قيادة نابليون بونابرت، كما عمل في فرقة الخيالة تحت قيادة كلشاك، وبعدها باشر مهمة الطيران والآن أصبح يقوم بأي عمل يمكن أن يعيد له ثرواته. والجدير بالذكر أنه أصبح الآن مفلساً تماماً ودون هوية وطنية سوى أنه يحمل جواز سفر مصري. وبدأ

يواسي نفسه بشرب المسكرات وفي الانخراط ببعض الحفلات الخالعة التي يشرف على ترتيب أمورها الليلية طبيب روسي مضى على عمله في جدة حوالي عامين. كان شيريكوف يتقاضى راتباً شهرياً بلغ ستين جنيهاً إسترلينياً، إضافة إلى خمسة جنيهات عن كل رحلة يقوم بها بالطائرة إضافة أيضاً إلى السكن المجاني والوجبات اليومية التي كانت تشتمل على زجاجة ويسكي يومياً يتقاسمها مع الميكانيكيين الروس الذين يعملون معه.

أكد شيريكوف لي أن معظم الرسميين في جدة يريدون تعينه رئيساً للأركان. واستعداداً منه لتسلم هذا المنصب كان يعد خطة لجلب حوالي أربعين سوفيتياً لقيادة الطائرات والدبابات التي كان يتم إصلاحها في جدة بغرض دحر السعوديين وطردهم من جدة. وبعد أن وصلت الطائرات قمت بزيارة أماكن وقوفها لمشاهدتها، وهناك عرض علي أن يوصلني إلى المدينة للقاء القنصل السوفيتي كريم خان حيكموف وهو من التتار. وبعد أن وجدناه دعاني إلى منزله، ومن ثم الذهاب لزيارة الدكتور ماكس. لن أنسى ذلك المشوار في سيارته المخلعة الأوصال التي جبنا بها شوارع جدة. تذمرت من الطريقة المستهترة التي كان يقود بها تلك السيارة لكنه قال جذلا: «لا تقلق لذلك». إن الضرر الذي ألحقته طريقة قيادته للسيارة في أكشاك الباعة المتجولين في السوق الرئيس في جدة لم تغير ولم تؤثر على مزاجه الجذل، وعندما كنا نقترب من منزل الدكتور أدار السيارة بشكل مفاجئ وسريع الأمر الذي أسفر عن صدم رجلين كانت إصابة أحدهما بالغة. أعاد ذلك الحادث له وعيه وأدرك بأنني أصبحت منزعجاً بالفعل. ولسوء الحظ لم يكن الدكتور في المنزل وأصررت على شيريكوف أن ينقل المصاب في الحال إلى

مستشفى المعسكر. لكنه هذه المرة قاد السيارة بوعيه الكامل ووصلنا إلى منزلي دون حدوث أي تصادم آخر، وأقسمت اليمين على أن لا أركب السيارة معه مرة ثانية. وبالفعل لم أركب معه علماً بأنني شاهدته عدة مرات خلال الأشهر القليلة التي بقيت من عمره.

كان وصول السيد طالب في الخامس والعشرين من شهر نوفمبر (تشرين الثاني) نقطة بارزة في التطورات التي طرأت على عملية السلام. وسبق لي أن عملت معه في بغداد على نحو ودي حميم، وكان على وفاق تام مع ما طرحته من أفكار تتعلق بأفضل السبل للتعامل مع ابن سعود. وفي الوقت نفسه كان يعرب عن آراء شخصية محددة تتعلق بوضعه في العالم العربي التي -بالمختصر- بدت لي خيالية وغير واقعية بعض الشيء. وكما أشرت سابقاً كان له علاقات مع شخصيات مختلفة في الأردن، وسبق أن طُلب منه أن يقبل منصب رئيس الوزراء خلفاً للركابي باشا. وحسب روايته قال بأنه لا يرغب في ذلك المنصب ولا حتى في منصب الأمير عبدالله نفسه. وقال أيضاً بأن الكولونيل سايمز -الذي كان في وقتها يشغل منصب كبير الأمناء بالوكالة نظراً لغياب السير غلبرت كلايتون- عرض عليه كما عرض عليه بيك باشا -الذي زاره في الإسكندرية لنفس الغرض- أن يقبل منصب حاكم إمارة الأردن. ذلك إذ تمكنا من ترتيب ذلك الأمر! ولعلم بيك بأن الدعوة كانت قد وجهت إليه لزيارة جدة، رجاه بيك بعدم الذهاب إلى هناك. كما قال لي أيضاً بأن كبار الرسميين في القدس كانوا على عداء شديد له في حين كان عبدالله -الذي سبق أن أعرب له عن أسفه لرحيلي- غير راضٍ تماماً عن الكولونيل كوكس الذي خلفني في منصبي. كان كوكس الذي استغل قيام عبدالله برحلة لأداء فريضة الحج إلى مكة قد تقدم باقتراح مفاده أنه يجب ألا يسمح

لعبدالله بالعودة إلى عرشه ما لم يوافق مسبقاً على إقصاء كافة العناصر المؤيدة لسوريا من مناطق عبر الأردن التي كانت في ذلك الوقت تحت إمرة عادل أرسلان. وفي النهاية تغلب رأي غلبيرت كلايتون واضطر عبدالله على التوقيع عند عودته على الأوامر القاضية بإقصائهم جميعاً.

كان السيد طالب قد زار دمشق، وهناك حظي باستقبال حار علماً بأن السلطات الفرنسية طلبت منه بشكل لطيف أن لا يطيل إقامته في دمشق. وفي دمشق أيضاً عامله رولتر سمارت، القنصل البريطاني العام، بشكل ودي للغاية وشعر أنه كان يستعيد مكانته في ظل عناية الحكومة البريطانية التي وعدته بأن تسمح له بالعودة إلى البصرة بعد أن تتم الانتخابات البرلمانية الجديدة. وكان واثقاً أيضاً أنه عند عودته إلى موطنه سيكون بإمكانه إغواء أحد أصدقائه بالتنحي عن عضويته ليفسح له المجال بالدخول في الانتخابات، وبالتالي يضع أول قدم له في الحياة السياسية العراقية.

على أية حال لم يطرد من تفكير خيار الحصول على السلطة في الأردن، ولم يكن قراره في زيارة جدة منفصلاً عن احتمال توفر ذلك الطموح الذي اعتمد من أجل تحقيقه على مساعدتي التي كانت بالنسبة له مخلب قط لا غنى عنه. ومن وجهة نظره كان ضرورياً جداً أن أجتمع أنا شخصياً مع ابن سعود وأن أعمل على إقناعه بان يصرح علناً بأنه لم يعد يتحمل وجود عبدالله العدو اللدود الذي يعمل تحت الحماية البريطانية. كما رأى أنه عليَّ أن أقنع ابن سعود بأن يقترح ترشيح السيد طالب لحكم تلك الإمارة مقابل أن يتنازل السيد طالب عن المطالبة بوادي السرحان وقرى السلط وبالتالي يتخلى عنها لصالح ابن سعود. وقال: إنه سيقدم له الممر البري الذي كان يستهويه والذي يربط مملكته بسوريا. وتخيل له بأن

الحكومة البريطانية سترحب بهذا الطرح نظراً للمشاكل القائمة بينها وبين عبدالله. واعتقد بأنه إذا حدث ذلك فإنه سيحتفظ لي بمنصب المراقب البريطاني في بلاط حكومته. لكنني لم أقل له بأن ذلك العرض لم يكن ليغريني -خاصة وأنني أصبحت أتمتع باستقلالية العمل- في أمور لها علاقة بابن سعود ولها علاقة بجزء من الجزيرة العربية التي تستهويني لأسباب عدة بما فيها اكتشاف الربع الخالي.

بدأت الأمور تتطور بسرعة وذلك بعد أن أصبح ابن سعود على مشارف الحجاز. وفي اليوم الأول من شهر ديسمبر (كانون الأول)، وبعد أن شفيت من نزلة برد منعتني عن العمل لعدة أيام، استلمت رسالة رسمية من الوكالة البريطانية. فتحتها وأنا أرتجف خوفاً من احتمال أنها كانت تحمل أمراً لي يقضي بأن أتخلى عن مهمتي في جدة. لكن لم تحتو تلك الرسالة على أي شيء من ذلك القبيل: وجدت بداخل ذلك الظرف الكبير رسالة رسمية معنونة باللغة العربية وموجة إليَّ. كانت تلك الرسالة التي انتظرتها طويلاً من ابن سعود والتي جاء فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم

سلطنة نجد وملحقاتها

الرياض في الرابع والعشرين من ربيع الأول عام ١٣٤٣هـ

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود إلى صديقنا المكرم السيد فيلبي.

بعد التحية، فقد استلمت ببالغ السعادة رسالتك التي أرسلتها من جدة وسبق ذلك أن كتبت إلينا الحكومة البريطانية بخصوص زيارتكم إلى جدة التي لم تكن

بصفة رسمية. والآن وفيما يتعلق بخصوص توسطكم بيننا وبين الشريف علي فإن المسألة من أولها إلى آخرها تتوقف على رأي العالم الإسلامي الواضح جداً في عدم رضاه عن كافة أبناء الحسين. وكبادرة استرضاء فأنت تعلم كم أحاول جاهداً من أجل السلام والتوصل إلى تفاهم مع شريف مكة. هذا وسنصل قريباً بإذن الله إلى مكة وبالتأكيد سنجتمع بك -إن شاء الله- لتبادل وجهات النظر. أتمنى لك الصحة والسلامة. صديقك المخلص. "ختم الملك".

وما إن انتهيت من قراءة تلك الرسالة حتى دخل إلى غرفتي فؤاد الخطيب حاملاً رسالة من ابن سعود موجهة إلى كافة سكان جدة. كانت تلك الرسالة قد وصلت مع نسخة من الرسالة التي كانت بحوزتي إضافة إلى رسالة أخرى موجهة إلى كافة القنصليات الأجنبية، وذلك في إرسالية واحدة قام أحد المراسلين بتسليمها إلى القنصل البريطاني. لم تكن تلك الرسالة موجهة رسمياً إلى فؤاد الذي شعر بالإهانة واستاء من تواصل ابن سعود مع رعايا الملك علي عن طريق القنصليات المحايدة. كان فحوى الرسالة مطابقاً تماماً لما كان متوقعاً، بمعنى أنها حملت عرضاً لتأمين سلامة وأمن كافة الناس شريطة أن يتخلصوا من الملك علي. كما احتوت على تحذير مفاده أن مسؤولية ما يترتب عن عدم فعل ذلك الشيء ستقع على عاتقهم.

لم تكن تلك الرسالة من وجهة نظر الملك علي رسالة مشجعة لكنني حاولت أن ألطف من الإهانة التي لحقت بكرامة فؤاد الذي تركني وبنفسه الكثير من المرارة لعلمه بوعد ابن سعود في الاجتماع بي في جدة. ذهب فؤاد بتلك النفسية إلى الملك، وبعد فترة قصيرة أُرسل في طلبي لأشارك في جلسة المجلس الاستشاري للملك. وهناك تمت مناقشة العديد من الاقتراحات العقيمة التي جاء فيها: يتوجب على القنصليات الأجنبية إعادة الرسالة مع الإشارة بأنه ليس من حقهم التصرف

كـمكتب بريدي للمـراسلات بين ابن سـعـود والناس في جدة، وإذا حـدث وأن أطلعوا الشعب على تلك الرسالة يتوجب عندها على الحكومة أن تحتج على انتهاك القنصليات لموقفها المفروض أن يكون حيادياً. وإذا حدث وأن أرسلوها إلى حكومة الحجاز بصفتها ممثلة عن الشـعب، -ويبدو أن ذلك إجراء مناسب- فيجب أن تعاد دون أن يفتحوها ويطلعوا على فـحواها ملمحين بذلك إلى عدم تمكن الحكومة من إيصال فحوى رسالة تحرض على العصيان بذلك الشكل المكشوف. كانت نصيحتي لهم بأنه يتوجب علـى الملك علي -بصفتـه رئيساً للشـعب- أن يكتب جواباً على تلك الرسالة وأن يرسل أيضـاً جواباً على البرقـية السابقـة التي تلقاها، وأن يكون جوابه مـدروساً لتهـدئة ابن سعـود بدلاً من إثارة سخطه. وقلت بأن المفـاوضات يجب أن تكون بمنزلة الهدف الرئيس للحكومة مهما بلغت التكاليف. وأضفت أنه ليس من الغريب أن يسعـى ابن سعود من أجل استغلال الـوضع الذي أطلعه عليه أصدقـاؤه الذين -دون أدنى شك- كانوا قد شـجعوه عـلى الاعتقـاد بأن الشعب أصبح على استعداد للوقوف في وجه علي. أيد العديد من الحاضرين هذا الاقتراح بما فيهم محسن كبير الأشراف في منطقة جدة، وتم الاتفاق على ذلك التوجه على أن يكون مشروطاً بالإجراء الذي سـتتخذه القنصليات الأجنبية. وفي اجـتماع عقد في عصر ذلك اليوم لم يوافق الدبلوماسـيون على الإجراء الواجب اتباعه، وقرروا أن يحيلوا المسـألة إلى حكوماتهم المعـينة لتزودهم بالتعليـمات المناسبـة. جاء في رسالة ابن سعود الموجهة إليهم ثلاثة بدائل لتأمين سلامة كافة الرعايا الأجانب:

أولاً: من الممكن أن يتوجهوا إلى مكة[1] حيث يمكن ضمان سلامتهم.

ثانياً: يمكن إجلاؤهم عن أراضي المملكة عن طريق البحر.

(١) المقصود بين مكة وجدة حيث تعسكر قوات الملك عبدالعزيز.

ثالثاً: يمكن أن يتجمعوا في منطقة محددة وسيتم فيما بعد تزويدهم بكافة التفاصيل الخاصة بأوضاعهم.

استدعى بولارد كافة ممثلي الرعايا البريطانيين الموجودين في جدة ليبحث معهم الأمر بشكل غير رسمي. وبعد مناقشة مختلف الطرق التي يمكن أن يسلكها ابن سعود ومناقشة ما يترتب عليها من نتائج طرح بولارد على الممثلين ثلاثة خيارات وهي:

١: مغادرة الحجاز بشكل كامل وعلى نفقتهم الخاصة.

٢: النزوح المؤقت إلى جزيرة كمران وأيضاً على نفقتهم الخاصة حيث ستزودهم الحكومة بالماء والمسكن المجاني.

٣: القيام بعمل أحد هذين الخيارين من قبل النساء والأطفال وبعض الرجال تاركين أربعين أو خمسين رجلاً ليشرفوا على ممتلكاتهم ومصالحهم، وأن القنصلية ستؤمن لهؤلاء الرجال السكن والترتيبات الأخرى في حال تعرضت المدينة للهجوم.

كما أوضح بولارد بأن الحكومة البريطانية لن ترسل - في أي حال من الأحوال- قوات لحمايتهم كما أنها لن تتحمل أية مسؤولية تجاه سلامة ممتلكاتهم. وقد طلب هؤلاء الممثلون إعطاءهم مهلة يوم لدراسة الوضع. وفي اليوم التالي أخبرني عبدالله فضل عرب بأنهم قرروا إبلاغ بولارد بأنهم سيبقون في أماكنهم تحت حماية حكومة الحجاز. كان رد فعلهم هذا بمنزلة ضربة لاذعة للطروحات البريطانية، ومما لا شك فيه أنه كان لدى بعض هؤلاء الناس قناعة بأن السعوديين لن يقوموا بعمل يلحق بأنفسهم الخزي أو العار.

في تلك الأثناء استلمت الرسالة التي وصلت لي من بولارد صباح اليوم الأول من شهر ديسمبر (كانون الأول) الميمون: حذرني في تلك الرسالة بأن طردي من الخدمة سيكون النتيجة الطبيعية لتجاهلي أوامر الحكومة في عدم التوجه إلى المناطق الداخلية في البلاد. وكان ذلك وضعاً حرجاً للغاية! وكتبت جواباً فورياً على ذلك أشرت فيه بأنني لم أتلق مثل تلك الأوامر، وذكرت بأنه أشار في رسالته الأصلية بأن الحكومة يمكن أن لا تسمح لي بالذهاب إلى المناطق الداخلية: وكان ردي بمثابة تصريح يوضح حقيقة عارية. وعليه طلبت منه أن يقدم لي أوامر واضحة بذلك الخصوص. وفي مقابلة ودية للغاية مع بولارد تمت بناء على طلبه في عشية اليوم التالي أخبرته بأن ابن سعود دعاني لمقابلته وأنني أطلب رسمياً حجب القيود المفروضة على حريتي. لكن كيف يمكن إعادة النظر في مثل هذه القيود والحكومة البريطانية سبق أن أعلنت عن موقفها الحيادي كما أعلنت عن إذعانها للنشاطات التي تقوم بها لجنة الخلافة الهندية التي صرح وفدها علنياً عن عزمه في العمل ضد مصالح أسرة الأشراف التي تعدها من مفرزات الاستعمار البريطاني؟ أجاب بولارد قائلاً: لكنهم مسلمون! عندها قلت له: حسناً، ماذا يمكن أن يحدث لو اعتنقت أنا شخصياً الدين الإسلامي.. من الأفضل لي أن أكون مسلماً من أن تعدوني مسيحياً. ضحك بولارد من قولي واقترح أن عليَّ أن أستغل المفاوضات التي سأجريها نيابة عن علي وأحول أنظار ابن سعود عن إفلاس السياسة البريطانية في الأردن والعراق. فقلت محتجاً على هذا: إنه ليس للحكومة البريطانية أي حق طبيعي في منع أية جهود ترمي إلى إنقاذ الحجاز من الوقوع في حمام دم أسهمت سياستها في الماضي في خلقه، وقلت أيضاً: إنه من غير العدل أن تستخدم الحكومة البريطانية ضدي سلاحها الوحيد المؤثر، وبالتحديد مصادرة رواتبي

التقاعدية وبالتالي ترك أسرتي تعيش حالة عوز وفقر. لا أستطيع أن أخوض تلك المغامرة ولكنني سأحتفظ بحقي في الانتقام.

سخرت أنا وفؤاد من تلك التطورات، لكننا أدركنا جدية ما كانت تنطوي عليه من أمور. اعتقد فؤاد أنه يمكن التغلب على العقبات بإجراء لقاء سري، كما أن الملك علياً وحكومته سيضمنون لي ما يعادل مرتباتي قي حال قامت الحكومة البريطانية باتخاذ أي إجراء سلبي بحقي. كان عليَّ أن أوضح أن دلائل كون الحكومة في مثل ذلك الموضع لاتخاذ ذلك الإجراء لم تكن بشائر ناصعة. أما أنا فليس بإمكاني المجازفة في أمور تخص أسرتي بشكل مباشر. في تلك الأثناء ربما كان عليّ أن أنتظر المزيد من التعليمات الصريحة التي سبق وأن وعد بولارد في الحصول عليها. وفي اجتماع تم لاحقاً مع الملك علي تناولنا الموضوعات نفسها وقال: إنه سيحتج بقوة على أي إجراء تقوم به الحكومة البريطانية يمكن أن يحرمه من خدماتي المتعلقة بالمفاوضات المقترحة. وعندما استأذنت بالانصراف تركني والدموع تملأ عينيه متأثراً بمساعدتي إياه في وقت الضيق.

وفي اليوم التالي أقلع شيريكوف في إحدى الطائرات الجديدة من طراز دي اتش 9 وأثناء التحليق اكتشف خللا في عمل خزان الوقود. وعلى أثر ذلك صرح بأن الطائرة لا تصلح لأي عمل عسكري، وأنه لن يطير بها بعد ذلك، وعليه ضعفت قوات الملك الجوية بمعدل الثلث.

وفي اليوم الرابع من شهر يناير (كانون الثاني) استلمت مقر إقامتي، وكان عبارة عن فيلا شبه ملكية في منطقة الكندرة ونزلت فيها ضيفاً على السيد طالب وتبين فيما بعد أن إقامتي فيها لم تدم إلا مدة أسبوعين. وفي اليوم التالي وصل ابن

سعود إلى مكة يرافقه حوالي ثلاث مئة رجل، وبعد بضعة أيام تم استدعاؤنا إلى القصر لنتسلم الرسائل الموجهة منه إلينا. استلم أمين الريحاني رسالته التي أطلعه فيها ابن سعود على أنه نظراً للظروف الراهنة لا يستطيع ابن سعود مقابلته. في حين كانت هناك رسائل أخرى موجهة إلى القنصليات الأجنبية يؤكد لهم فيها أنه في حال ما إذا شن السعوديون الهجوم على المدينة فلن يكون هناك ما يستدعي خوف الرعايا الأجانب أو خوف الأهالي في جدة شريطة أن يبقى الجميع في منازلهم. أما بالنسبة للرسالة الموجهة إليَّ، فكانت ودية للغاية إذ جاء فيها بأنه يسر ابن سعود الاجتماع بي في منطقة بحرة ذلك إذ رغبت في مناقشة أي موضوعات شخصية معه. أما فيما يتعلق بالوضع في الحجاز فكان ابن سعود يصر على رحيل الملك علي عن البلاد. ولم يكن في نيته، كما لم يكن في نيتي التوسط في ذلك الأمر. وكانت الرسالة الموجهة إلى السيد طالب مثل رسالتي مع استثناء واحد هو أن الدعوة كانت موجهة له لزيارة مكة بصفة شخصية وودية محضة. سلمت هذه الرسائل إلى كافة الأشخاص المعنيين ليقرؤوها وقد أحدثت في نهاية الأمر جواً من التشاؤم والقنوط.

صرح فؤاد بأنه لم يعد بينهم إلا حرب لا هوادة فيها. لكن السيد طالب انزعج منه كثيراً لقوله مثل هذه التفاهات وأجبره على الاعتراف بأنه سيكون أول من يهرب عندما يبدأ إطلاق النار. تم الاتفاق بشكل عام بأنه لا ضرر من قبول السيد طالب دعوة زيارة ابن سعود في مكة؛ ذلك لأنه ستتوفر له على الأقل فرصة تقييم احتمالات التوصل إلى وفاق ما، كما أنه من الممكن أن يكون بمقدوره إقناع ابن سعود في أن يجرب المفاوضات قبل أن يشهر سيف القتال. وانفض الاجتماع على ذلك الرأي كما أن فؤاداً أخذ معه نسخاً عن كافة الرسائل ليحتفظ بها في ملفه

- ومما لا شك فيه، ليطلع عليها بولارد- وعند عودتنا إلى الكندرة قمت أنا وطالب بكتابة رسائلنا الجوابية لترسل إلى ابن سعود. وشرحت له في ذلك الجواب بأن هدفي الرئيس من رغبتي في زيارته كان إنجاز ما وعدت به قبل حدوث التطورات الراهنة، وبالتالي مناقشة بعض القضايا الاقتصادية التي سبق لي أن ناقشتها مع وكيل ابن سعود في البصرة المدعو عبد اللطيف المنديل بما فيها إمكانية ترتيب موضوع منح امتياز نفطي في الأحساء. وبسبب صداقتي للملك علي تمكنت من الذهاب إلى جدة على أمل مقابلة الملك في أسرع وقت ممكن؛ وذلك لأنني قرأت في الصحيفة اليومية بأنه كان في طريقه إلى الحجاز. وبعيداً عن أي رغبة لي في التدخل في الشؤون أو القضايا التي تهم المسلمين فقد كان طموحي الوحيد هو خدمة قضية العرب بأفضل ما أملك من قوة. وبعد أن كتب السيد طالب رسالته وقبل الدعوة لزيارة مكة توجه للتحدث مع القنصل بولارد. وتساءل السيد طالب قائلاً: أليس من المفيد والمجدي أن نستغل اللقاء القادم ونجعل ابن سعود يضغط لإزاحة عبدالله من منصبه في الأردن لمصلحته الشخصية؟ كان لبيك والآخرين يد في ذلك التوجه، كما يمكن أن يكون بولارد قد شعر بأنني كنت أشجع طموحات طالب الرامية إلى هذه الغاية. وفي الواقع كنت قد فعلت كل ما بوسعي لأثنيهم عن فعل ذلك، كما جاءت النصيحة التي قدمها بولارد له صورة مكررة عن نصيحتي له. وكان بولارد محقاً عندما أشار إلى أن أي تدخل من الخارج في مثل هذا الموضوع يمكن أن يقضي على أية فرصة لدراسة تلك الفكرة من قبل الحكومة البريطانية. وتعهد أن يناقش تلك المسألة مع الحكومة البريطانية خلال زيارته القادمة إلى إنجلترا.

أصبح الملك علي وشعبه -بكل ما في الكلمة من معنى- أمام شبح الحرب. وظهر المنشقون -بعد أن صدر حكم بالعفو عنهم قبل شهر- على الساحة مجدداً. وقال قاسم زينل في جلسة عشاء بأن رحيل الملك علي هو أمر لا غنى عنه لإنقاذ وخلاص جدة. وحتى محمد الطويل بدأ يرى أن اللعبة قد بدأت بشكل ساخن علماً بأنه لم يسبق له وأن تزحزح عن ولائه للأتراك والأشراف، علاوة على أنه كان مخلصاً للملك علي في كافة مراحل محنته. إضافة إلى ذلك كان محمد الطويل لا يزال يراهن على الحل السلمي لذلك النزاع مع احتمال الاستسلام وفق شروط ابن سعود. ولم يكن يرغب في مشاهدة الأمور تصل إلى حد الامتثال الفعلي. كان محمد الطويل العنصر الفاعل في إجبار حسين على الرحيل والتنازل عن العرش. وكان واضحاً أن نتيجة المأزق الذي يتعرض له الملك علي ستعتمد على تصرفه في الأزمة الحقيقية. كان فؤاد الخطيب غير مستقر على رأي ومن المحتمل أنه كان خائفاً أكثر من أي شخص آخر في جدة.. فكان أحياناً يوحي بالتحدي وفي معظم الأحيان تراه يتساءل فيما إذا كان التحفظ أسلم من التكلم. وفي مختلف حساباته وتوقعاته كان فؤاد الخطيب يضع نصب عينيه مكانته ووضعه في المستقبل الذي كان من الممكن أن يحدده سوء التفاهم الحالي المربك. كان انتهازياً مسايراً لذوي السلطة تحقيقاً لمصلحته الشخصية، كما أنه من الممكن أن يكون قد ذهب إلى ابن سعود استجابة لعرض سخي قدم له. وحدث أن أفضى فؤاد الخطيب لي بسره قائلاً: بأنه لو عرضت عليه إمارة منطقة عسير لسارع إلى انتهاز تلك الفرصة؛ لأن جبال وتاريخ تلك المنطقة ينسجم -على ما يبدو- مع الجانب الفني من شخصيته. لم يكن فؤاد الخطيب شاعراً مزعجاً ذا ميول فلسفية، لكنه في مناسبة أخرى أعرب معتقداً أن انتصار ابن سعود في مناطق الحجاز

سيخدم مصلحة الأهالي علماً بأن براءة الملك علي كانت بمنزلة حجة لنقض الوضع الذي وجد نفسه يعاني فيه من أخطاء والده وأخطاء الآخرين. علاوة على ذلك لم يكنّ الملك علي للبدو كراهية أو ازدراء، كما أنه كان مستاء من هدر المال والسلاح من أجل كسب ودهم. وحتى إنه ابتهج ابتهاجاً شديداً لسماع أن السعوديين سببوا قلاقل ومتاعب جمة للقبائل البدوية لدرجة أنه ردد المثل الذي يقول: «البدوي المذبوح يحجز مكاناً في الجنة لقاتله». لكنني اعتدت أن أناهض هذه المقولة بقولي: إن كل ما هو جيد في الشخصية العربية مشتق أصلاً من ثقافة الصحراء، وأن القلاقل والفوضى التي تقوم بها القبائل ما هي إلا نتيجة مباشرة للإدارة الفاشلة التي مارسها الحكام على مدى قرون عديدة.

لم يكن عبدالله سراج الذي شغل اسمياً منصب رئيس وزراء مجلس الملك علي سوى رئيس صوري يفتقر إلى الخبرة الإدارية وعاجز عن طرح أفكار خاصة به. أما الشريف محسن الذي كان مسؤولاً عن شؤون البادية فكان ذا فائدة محدودة خارج نطاق الإقليم الذي يشرف عليه، والذي من خلاله اكتفى أن يفوز بالحظوة عند مشايخ القبائل من خلال إرضاء نزعة السلب والجشع عندهم. وما هو مؤكد أن هؤلاء المشايخ كانوا على اتصال مستمر مع قوات العدو ولم يثنهم ضميرهم عن ضرب فريق بفريق آخر. من المحتمل حقاً أن يكون تحسين الفقيه، -والذي كان يشغل منصب رئيس الأركان- هو الشخص الوحيد من بين حاشية الملك علي الذي كان يعرف حق المعرفة ما كان يفعله. كان ينجز أعماله بتجاهل تام لآراء زملائه في الحكومة. فكان ينوي الدفاع عن جدة والصمود حتى يتم دحر الوهابيين بعيداً عن الحجاز. ففي اليوم السادس عشر من شهر ديسمبر (كانون الأول) أمر شيريكوف بأن يقصف مناطق الهدا وبحرة متجاهلاً تماماً القرار الذي

اتخذه مجلس الحكومة في اليوم السابق. لم يسبب ذلك القصف أي ضرر مباشر للجاهزية القتالية عند السعوديين، لكنه خلق بادرة حرب وقضى على أي أمل في إجراء مفاوضات سلمية. وفي صباح اليوم التالي استدعاني تحسين باشا وكان في مكتبه بعض كبار الضباط بما فيهم رمضان شلش الذي سبق أن أدى دوراً بارزاً في مقاومة الفرنسيين في سوريا. وكان قد اضطر في ذلك الوقت إلى مغادرة سوريا بعد أن أعلنت القوات الفرنسية عن مكافأة مالية لمن يقضي عليه. تركزت المحادثات على موضوع القصف الجوي المشار إليه سابقاً والذي أعربت بشأنه عن آراء صريحة على الرغم من الاحتجاجات التي صدرت عن الحضور ومقاطعتهم لي أثناء حديثي. وقلت بأن الخيار بين السلم والحرب أمر يعنيهم أكثر مما يعنيني، وأضفت بأنني قدمت إلى جدة على أمل التوصل إلى حل سلمي لكنهم اختاروا الحرب؛ ولذلك لم يعد هناك ما يبرر بقائي بينهم. وقلت: بأنني سأسعى للحصول على موافقة الملك علي على رحيلي.

يبدو أن القصف جاء مخالفاً لأوامر الملك المستندة على قرار انتظار جواب ابن سعود على رسائلنا. ومن المؤكد أن ثمة تأخيراً طرأ على جواب ابن سعود، لكن حقيقة أن رسولنا لم يعد بعد لأن ابن سعود أبقاه هناك لحين أن يجهز رده وبالتالي يحمله لنا. وأصبح الآن من الممكن معرفة طبيعة وفحوى ذلك الرد! فقد اختارت جماعة جدة طريقها وأصبح الموضوع متروكاً لهم ليتصرفوا بصفتهم رجالاً. عارض تحسين رأيي بقوله: إنه مقتنع منذ البداية بأنه لن يكون هناك حل سلمي، وأن ابن سعود كان يحاول أن يكسب الوقت ليعزز قواته ويجهزها للهجوم القادم. جاءت الأخبار من وادي فاطمة بأن هناك تحركات تقوم بها قوات ابن سعود. وجاء في الأخبار أيضاً أن ابن سعود أصدر أوامر مشددة يحظر بموجبها على أي شخص

مغادرة مكة. أرسل شخص من جدة معلومات إلى ابن سعود مفادها أن دفاعات المدينة كانت ضعيفة خاصة في الجناح الأيسر وهي المنطقة التي كان ينوي ابن سعود مهاجمتها، علماً بأن القوة التي أرسلها ابن سعود إلى الليث لتحقيق ذلك الغرض كان قد تم دحرها على أيدي القبائل الموالية للملك، وسقط منها حوالي ٦٠٠ رجل. قال تحسين: «إننا على أية حال مستعدون لكافة الاحتمالات». وكان جاداً في ذلك إلا أنه ارتكب الخطأ نفسه الذي ارتكبه الآخرون على مدى السنوات الخمس أو الست الماضية.

على أية حال كان غريباً أن يتردد ابن سعود طويلاً في اختبار المواقع الدفاعية حول جدة. سبّب ذلك التأخير ظهور شائعات مفادها أن استعداده وقوته آنذاك لم تكن كافية وأنه كان ينتظر وصول بعض التعزيزات. بررت هذه التفسيرات خطط تحسين في القيام ببعض الإجراءات قبل وصول تلك التعزيزات. لكن -وعلى كافة الاحتمالات- كانت معضلة ابن سعود سياسية أكثر منها عسكرية. فلم يكن من السهل التكهن بتصرف الدول الأجنبية الممثلة في جدة على الرغم من إعلانها لموقفها الحيادي. ومن المحتمل أيضاً أن جهة ما كانت قد حذرت ابن سعود بشكل غير رسمي بأنه يمكن اتخاذ موقف سلبي حيال أي عمل يمكن أن يقوم به والذي يمكن أن يسفر عن إلحاق الضرر بالرعايا الأجانب في جدة. ربما كان بإمكانه أن ينتظر تطور الأوضاع علماً بأنه لم يطلعه أحد عن حقيقة ضعف القوات في جدة وضعف مواقعها الدفاعية.

استفز موضوع القصف الجوي وكذلك الجدل الذي نجم عنه مع تحسين باشا مشاعر الاستياء عند السيد طالب، الأمر الذي حمله على التوجه مع بقية الرجال ليناقش الوضع مع الملك ومستشاريه. وفي ذلك الاجتماع شجب تحسين بقسوة

محاولاتي التي قال عنها بأنها تهدف إلى شل المواقع الدفاعية وقال بأنها تقف في وجه كافة النشاطات العسكرية الضرورية، وصرح بأنه لا يمكن أن يتحمل أي تدخل من قبل أي شخص. عندها قال طالب بأنه لا يرى داع لبقائه وأنه يفضل العودة إلى مصر على متن أول سفينة متوجه إلى هناك. حاول الملك علي أن يخفف من انفعاله بأن قال له: بأنه لم يصادق أو يوافق على عملية القصف. وبعد مناقشات مطولة تم الاتفاق على أن يكتب طالب والريحاني وأنا رسالة إلى ابن سعود محاولة أخيرة لتجنب انهيار الوضع. رفضت وبشكل قاطع أن أمثل الدور الذي أسند إليَّ، لكن طالب والريحاني بعث كل منهما رسالة إلى ابن سعود.

أخبر طالب ابن سعود بأنه كان قد أعد بعض الترتيبات لمغادرة جدة في الحادي والعشرين من ذلك الشهر إذا لم يستلم جواباً على رسالته. وبالنظر للتشكي المستمر والتبرم الذي كان يصدر باستمرار عن طالب فقد قررت أن أغادر الكندرة وأعود في التاسع عشر من الشهر نفسه إلى منزل مصطفى ناظر في جدة. كانت تلك هي الليلة الأخيرة لنا، قضيناها على شرفة منزل مضيفنا ونحن نشرب ونأكل الكافيار، وكانت تلك الليلة بمنزلة تغيير مفاجئ من الحسن إلى الأسوأ. وبعد أن شربنا بضع كؤوس بدأ ناظر يؤنبني لإحضاره إلى جدة من أجل مهمة عقيمة وصرخ بأنه سيتخلى عن السياسة ويتقاعد إما في مصر أو أوروبا ليعيش في سلام. وكان جوابي له أنه لا يمكن له أن يأمل في تحقيق طموحه في عيش حياة مرفهة منغمسة في الملذات بعيداً عن أرض المعركة السياسية. أجابني على ذلك بأن أشار إلى سجل فشلي المتواصل وكأنه يقول لو أنني قبلت السباحة مع تيار سياسة الحكومة بدلاً من معارضتي المتواصلة لها لربما أصبحت الآن في منصب المفوض السامي البريطاني. أنهى حديثه قائلاً: لما لا تترك السياسيين العرب من أجل راحة

نفسك.. وبعدها ذهب كل واحد منا إلى فراشه. جاء في عدد اليوم التالي لصحيفة «صوت الحجاز» مقال مطول كُتب بلغة طنانة ويقال: إن إحدى الطائرات أسقطت ذلك المقال فوق مكة، علماً بأن ذلك هو شيء غير وارد. كان ذلك المقال موجهاً من الملك علي إلى أهالي مكة يحرضهم فيه على أن يكونوا شجعاناً وأن يؤدو دور الأبطال؛ لأنه كان على وشك شن هجوم لتحريرهم من السيطرة السعودية. بدا ذلك المقال وكأنه ناقوس أو صوت شؤم صادر عن أسرة الأشراف مع العلم بأن الملك عليّاً أكد لي فيما بعد بأن ذلك المقال نشر دون أخذ موافقته.

أخذت الأمور العسكرية في التصاعد.. وكيف يمكن مع هذه الحالة لأي شخص باستثناء الحكومة مقاومة إصرار وعزم ابن سعود على القضاء على تلك الحكومة المنقسمة على نفسها؟

أصبحت عازماً أكثر من أي وقت مضى على مغادرة جدة إلى عدن، وذلك في أول فرصة سانحة يمكنني فيها مقابلة روزيتا فوربس لمناقشة خططنا المستقبلية لعبور مناطق الربع الخالي. بذلت العديد من الجهود لإقصائي عن الرحيل لكنني أعتقد بأن الجميع أدرك بأن الأمل تضاءل كثيراً في التوصل إلى تسوية سلمية في أزمة الحجاز.

وفي الحادي والعشرين من ذلك الشهر نفسه وبعد أن علمت أن السيد طالب كان يعاني من الزحار (الديزنتاريا) توجهت لزيارته في الكندرة وانضم إلينا فيما بعد قاسم زينل الذي أخبرنا بأن الحكومة كانت تحاول الحصول بالقوة على قرض من التجار لمواصلة الحرب. كان قاسم زينل قد تبرع بـ ١٥٠٠ جنيه إسترليني كما تبرع رئيس بيت باناجه بالمبلغ نفسه، وتبرع محمد الطويل بـ ١٠٠٠ جنيه وتبرع

بمثلها عبدالله علي رضا، أما قائم مقام مكة فتبرع أيضاً بألف جنية إسترليني. وأعتقد أن تبرعات أخرى بقيمة خمسة آلاف جنيه قد تصل إلى الحكومة من أبناء المدينة. كانت الاعتمادات المالية للحكومة قد تناقصت كثيراً لدرجة أننا أصبحنا نشك في أن رواتب الجنود ستدفع بالكامل، ولم يبق على موعد استحقاق دفعها سوى أسبوع. وأصبح الجميع يتكهن بما يمكن أن تفعله الحكومة في حال عجزت عن دفع المرتبات. في تلك الأثناء تفاجأنا بوصول رسائل إلينا بعث بها ابن سعود من قصره. وجاء في رسالتي ما يلي:

«بعد التحية والحب. وصل لنا بريد جدة ولكن لم نجد فيه رسالة منكم آمل أن يكون المانع خيراً. إنني آسف جداً لعدم تمكني من مقابلتك لأن ضغط العمل يجبرني على عدم مغادرة مكاني، لكن آمل بأن تتاح لنا الفرصة في مقابلة صديقنا السيد فيلبي الذي لا نستطيع الاستغناء عن نصائحه ومشورته. نرفق لك نسختين عن أم القرى لتستمتع بقراءتهما».

عبرت رسالة طالب عن الأسف لرحيله عن جدة قريباً. كما أعربت الرسالة عن أمل ابن سعود في مراسلته في مصر أو في أي مكان آخر. وجاء في الرسالة أيضاً أن أهالي مكة طلبوا منه إرجاء اللقاء إلى وقت مناسب آخر. أما بالنسبة لرسالة الريحاني فأعرب ابن سعود عن أسفه عن عدم مقابلته شخصياً لكنه اقترح إذا كان لديه أي نصيحة أو مقترحات يود أن يعرضها على ابن سعود فعليه أن يرسل ممثلاً عنه وذلك بمقتضى اقتراح الريحاني سابقاً. كان هذا الشخص المقترح يدعى حسين العويني وهو تاجر لبناني مسلم يدير تجارته من جدة وشاء الله فيما بعد أن يصبح وزيرا للمالية ورئيسا للوزراء في لبنان كما حدث وأن تحسنت أحواله

فأصبح في وقتها من أغنى أثرياء الجزيرة العربية. غادر العويني جدة متوجهاً إلى مكة وهو يحمل رسالة مني وواحدة أخرى من الريحاني. اكتفيت بأنني أطلعت ابن سعود في تلك الرسالة على نيتي في المغادرة قريباً إلى عدن على أمل أن أجتمع به في يوم ما عندما تكون مشاغله قد قلت.

وفي يوم الثالث والعشرين شرفني الملك علي بأن زارني شخصياً وسرنا سوية إلى مسكن السيد طالب الذي كان لا يزال يعاني وسكرتيره أيضاً من مرض (الديزنتاريا). وقالا: إن موجة البرد التي جاءت بعد سقوط المطر كانت السبب في مرضهما. وسرعان ما انضم إلينا العديد من الزوار منهم محمد الطويل ونورس بيك الذي يعد العقل المدبر للجيش. أعلن نورس بصراحة تامة أنه إذا غادرت أنا وطالب فإنه سيغادر أيضاً باعتبار أن الوضع العسكري أصبح ميؤوساً منه. وقد أيده في ذلك الموقف حمدي البطل الشاب في موقعة رابغ الذي سبق أن أشرت إليها. عندها قلت بأنه إذا عاد العويني دون نتائج ملموسة من زيارته فسيبقى الأمل الوحيد للملك علي هو أن يرسل وفداً من وجهاء جدة لمناقشة الوضع مع ابن سعود. وسيتم اتخاذ القرار الأخير المتعلق بالسياسة التي يتوجب تبنيها على ضوء نتائج زيارة ذلك الوفد. بدى وكأنني أعربت عن الشعور العام الذي لم يكن أي من الحضور مستعداً لتأييده على مسؤوليته الخاصة. لكن محمد الطويل لم يؤيدني فقط، بل على الفور طرح أسماء الأشخاص الذين يجب أن يتشكل الوفد منهم. وعليه طرح اسمه واسم قاسم زينل ومحمد نصيف وعثمان باعثمان وكانت فكرته بأنه يجب أن تكون لدى الوفد صلاحية تحقيق السلام مهما بلغ الثمن شريطة أن

يبقى الملك علي على عرشه. لكني انتقصت من قيمة ذلك الطرح واستبعدت تحقيق ذلك الشرط.

لقد كان ذلك آخر تدخل لي في المشاورات الحكومية التي كانت على الأقل تجري في تلك الظروف. عاد العويني من مكة في اليوم الرابع والعشرين حاملاً معلومات أسفرت عن إقصائي أنا وطالب عن المشاركة في مناقشات القصر وفي أموره السرية، ساد الاعتقاد بأن السلام كان وشيكاً نتيجة للرسالة التي بعث بها أمين الريحاني إلى ابن سعود، وساد الاعتقاد أيضاً بأنه أوكل إلى الريحاني وفؤاد مهمة إعداد تفاصيل إتمام ذلك السلام، وسادت روح التفاؤل أجواء المدينة إلا أن القلق كان يعتمر نفس الملك علي، وربما كان يشك بأن الخيانة والغدر به سيكونان ثمناً لذلك السلام. تم توقيف الرسل -التي كانت تحمل أجوبة الريحاني الشفهية على آراء ابن سعود- لمدة ساعتين في القصر، وجرى تفتيشهم بحثاً عن رسائل اعتقد بأنهم كانوا يحملونها إلى مكة من محمد الطويل نفسه! لم يعثر بحوزتهم على مثل هذه الرسائل، وعليه سمح لهم بمتابعة المسير. ومع مرور الأيام اتضح أنهم سلموا رسالتين من الطويل إلى أصدقائه في مكة ! وطبعاً بعد أن تم تفتيشهم عادوا وأخذوا الرسائل من المكان الذي وضعوها فيه، ومن المحتمل أن تلك الأماكن كانت خارج المواقع الدفاعية. كان الجو مشحوناً بالدسائس والمكائد تماماً كما كان مشحوناً بتفاؤل عشوائي. ولسوء الحظ لم أكن في حالة تحثني للاهتمام بما كان يتخذ من إجراءات. وفي اليوم السادس والعشرين شعرت بمرض شديد وقضيت بقية العام في الفراش أعاني من حالة (الديزنتاريا) وهو وحيد الخلية يتغير شكله باستمرار. ويعود السبب بإصابتي به للإسراف في أكل الكافيار الذي قدمه طالب لي. قدم لزيارتي بين الحين والآخر بعض الأصدقاء، كما أشرف على

علاجي عـدد من الأطباء كـلفهم القـصر بالاعتنـاء بي. كان أحد هـؤلاء الأطباء شخص يدعى خالد الخطيب. استخدم هذا الطبيب حقنة ملوثة غير مـعقمة وأدى ذلك إلى تورم ذراعي مع الشعور بألم بالغ. وكنت في حالة يرثى لها وتراءى لي أن الأمل الوحـيد للخـروج من تلك الحالة هو الذهاب إلى عـدن للحصـول على العناية الطبيـة الملائمة. لكن موعد إبحـار الباخرة الفرنسـية شانغر بقـيادة الكابتن كونستنتين كان مـقرراً في الثالث من كانون الثاني، وعليه استمـرت معاناتي حتى ذلك الحين. قللت إبر الأمنين من حـدة الديزنتاريا، لكن استـمر الألم في ذراعي وكنت أشعـر بضعف مخـيف. ولا أتذكر أن شعـرت بمثل ذلك المرض من قبل. لكن أخيراً أطل فـجر الخلاص.. حزمت أمتـعتي وذهبت لأودع بولارد الذي كان في منتـهى اللطف معي خـلال فترة مـرضي. بعدها زرت الملك وودعنـي بحرارة علماً بأنه بدا لي متعباً جداً بسبب القلق والمرض. كان الملك الضحية البائسة لتلك الظروف وضحـية عدم قـدرته على الحكم، وضحيـة أصدقائه الذين كـان هدفهم تحصيل ما يمكن أن يجمعوه من الثـروات المتناقصة لتلك المملكة المحتضرة. ودعني عند رصيف المينـاء محمد الطـويل وعدد آخر من الأصـدقاء، بينما رافـقني قاسم زينل وأمين الريحاني إلى ظهر السفينة شانغر التي رفعت مرساتها استعداداً للإبحار في الساعة الثالثة من عصر يوم الثـالث من يناير (كانون الثاني). وفي صباح اليوم الثاني بدأ ابن سعود يقصف جدة بمدافعه الضخمة، سقطت أول قذيفة على فراش بولارد لكنه لم يكن في فراشه كما أن القذيفة لم تنفجر.